الدراسات

تاريخ الخط العربي وأرقامه (1)

(مقدمة موجزة)

قاسم أحمد السامرائي

ليدن - هولندا

لقد أعلنتُ مراراً وتكراراً أن العمل في المخطوطات ما كان ولم يكن عملاً إدارياً آلياً صرفاً يقوم به من يشاء، بل هو قبل كل شيء هواية طاغية وشغف دافق وتعلق بها شديد (2)، إضافة إلى دُربة واسعة وتجربة طويلة المدى ماتعة، قبل أن تكون مهنة تدرُّ على ممتهنها لبناً وعسلاً، ومن هنا فإنني لا أكتمكم الحق في أن غالبية المشتغلين بالمخطوطات سواءً في ذلك المحققون أو المفهرسون (3) وبخاصة في خلال السنين العشر الماضية بعد رحيل العلماء الأعلام المتمرسين فيها، يفتقرون إلى أهم مقومات العمل فيها : الهواية أولاً والخلفية الثقافية الواسعة ثانيًا، ناهيكم عن التجربة الطويلة والمعاناة الجمة في فك معميات النساخ وتزوير المزورين وألاعيب تجار المخطوطات الدجالين الذين يسيئون إساءة فاحشة للتراث وأهله ويرمون المفهرسين في داهية طخياء وحيرة عمياء فنحن والحال هذه أحوج ما نكون إلى مفهرسين أدقَّاء بل إلى علماء أوفياء منا إلى محققين أدعياء أثقلوا رفوفنا بالتحقيقات السقيمة والفهارس العقيمة . وقد أحسنت **مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي** بلندن كلَّ الإحسان في تنظيم هذه الدورة الثانية في إستانبول بعد الأولى في القاهرة لأنها أدركت الصعوبات الجمة التي يعانيها الفهرس الإسلامي بعامة والعربي بخاصة في فهرسة المخطوطات، فحشدت لهما كوكبة من الخبراء في الفنون المختلفة، فللقائمين عليها كل شكر وتقدير .

أصل الخط العربي

والآن ما أصل الخط العربي الذي نعرفه في المخطوطات التي نتعامل معها ؟ ومن أين جاء إلينا ؟ وكيف تطور هذا التطور السريع حتى وصل إلى هذه الدرجات الجمالية الرائعة من السمو الفني والإبداع الكامل ؟ وما هي أنماطه في المخطوطات ؟

لو تركنا عرضًا روايات أهل الأخبار حول أصل الخط العربي كما روتها لنا كتب الأخبار والتاريخ واللغة في تسمية أول من وضع الخط العربي كما رواها النديم في الفهرست (4) مثلاً . وتركنا جانبًا ما قال ابن وحشية في كتاب شوق المستهام إلى معرفة الأقلام (5) عن أصول الأقلام البشرية، وما قال عن تحدُّر الأنباط (هنا يعني : أنباط سواد العراق) من البابليين أو الكسدانيين كما يسميهم في كتابه الضخم الآخر المسمى : الفلاحة النبطية (6)، وأخذنا من كل هذه الروايات رواية أهل الحيرة اللخمية حين سئلوا : «ممن أخذتم العربي ؟ فقالوا : من أهل الأنبار» (7)، والمعنى هنا : الخط العربي وليس اللغة العربية، لوصلنا إلى سند منطقي تاريخي معقول تؤيده الدراسات الأثرية المعاصرة الكثيرة، لبعض الاكتشافات النقشية الحديثة إضافة إلى الدراسات الأثرية للفخاريات التي عُثِرَ عليها، والأطلال التي لم تزل قائمة في شمال غَرب الجزيرة العربية وجنوب الأردن حيث سكن الأنباط العرب

وأقاموا فيها حضارة تجارية في الأساس استمرت قرونًا طويلة (٨)، فلعل أهل الحيرة اللخميين أرادوا بقولهم: «من أهل الأنبار» ؛ فتصحفت اللفظة عند النساخ أو الرواة ويؤيد هذا جواب رسول أهل الحيرة إلى خالد بن الوليد حين سأله: «فعرب أنتم أم نبط ؟ قال: عرب استنبطنا وسط الفرس» (٩)، أو أن أهل الحيرة تحاشوا اللفظة لسُبَّتها ولمزها في وقت السؤال، فإن رجلاً قال لآخر على مسمع من الشعبي: يا نبطي ! فقال الشعبي: لا حدَّ عليه (١٠) لأنه فهمها بمعنى الجوار والدار دون الولادة. ومازال الشعر العامي يسمى بـ: «الشعر النبطي» في الجزيرة العربية حتى اليوم. ومع كل هذا فقد روى الطبري أن خالد بن الوليد لما فتح الأنبار في سنة اثنتي عشرة للهجرة، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها فسألهم: ما أنتم ؟ فقالوا: قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا، فقال: ممن تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا: تعلمنا الخط من إياد (١١)، والمعروف أن إيادًا سكنت البحرين مع تنوخ إلا أنهم تحولوا في حوالي القرن الثالث للميلاد من الخليج العربي وسكنوا سواد العراق والجزيرة واصطدموا مع جذيمة بن مالك ملك الحيرة الذي كان معاصرًا لزنوبيا ملكة تدمر النبطية، بيد أن قسمًا منهم استقر في الحيرة وفي شمال الشام وقسمًا آخر اشترك مع الجيش الفارسي ضد قبيلة بكر بن وائل في معركة ذي قار حوالي سنة ٦٠٤ ميلادية فانحازوا إلى جانب بكر بن وائل فكانوا سبب هزيمة الجيش الفارسي (١٢). وهذا لا يعني أن إيادًا قد طوروا الخط العربي لأنهم سكنوا السواد ثم الحيرة والخط النبطي كان شائعًا معروفًا فتعلموا الخط النبطي وعلّموه لأهل الحيرة. وهذا يخالف الرواية الأولى التي تقول إن أهل الحيرة تعلموا الخط من أهل الأنبار. والحيرة والأنبار كانتا تحت النفوذ الفارسي الساساني قبل الفتح الإسلامي.

ومع هذا فإن النبط أو الأنباط كانوا معروفين بهذه النسبة في الشام كما يظهر من حديث ابن أم أوفى: «كنا نُسلِّف أنباطًا من أنباط الشام» (١٣) ومن إشارة حسَّان بن ثابت في شعره الجاهلي:

لكميتٌ كأنها دمُ جوف
عُتِّقَت من سلافة الأنباط (١٤)

أو في قول كعب بن مالك في حديث المتخلفين عن غزوة تبوك الذي روته لنا كتب السيرة والحديث، قال: «فبينما أنا أمشي في السوق إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام» (١٥) وفي قول كعب بن مالك أيضًا:

أثرنا سكَّة الأنباط فيها
فلَمْ نَرَ مثلَها جَلَهَاتِ وادي (١٦)

فهل معنى هذا أن لفظة الأنباط هنا كانت مرادفة لـ: «فلاحين وزرّاع» كماهي الحال في نبط سواد العراق ؟ أم أنَّ الأنباط كانوا معروفين بهذا الاسم في صدر الإسلام؟ ثم أن لفظة الأنبار عربية إسلامية، فقد كان يقال لها بيروز شابور في العصر الساساني أو «الأهراء» لأنها كانت مخزنًا للحبوب، فلما دخلتها العرب في سنة ١٢ للهجرة عربوها فقالوا الأنبار (١٧)، وأوجد العرب لها معنى مرادفًا لمعنى الأهراء الفارسية. ومازال العراقيون حتى اليوم يسمون مخزن الحبوب أو أي مخزن باسم «العنْبار» وهذا الاسم هو تحريف «الأنبار».

الأنباط والمؤرخون

لقد تخبط المؤرخون العرب في أصل الأنباط بيد أنَّ غالبهم اتفق على نسبتهم إلى أرم بن سام بن نوح، وقسَّموهم إلى أرمانيين وهم نبط السواد وبقايا ثمود، وأردمانيين وهم أنباط الشام (١٨). ومع وجود المسحة الأسطورية في كل هذا فإنهم لم يبعدوا كثيرًا عن الحقيقة التاريخية في نسبتهم إلى الساميين، ولكنهم لم يدركوا أنهم كانوا من العرب بل من الآراميين ومع هذا فإنهم

أدركوا الاختلاف بين نبط السواد وهو المنطقة التي كانت تحت سيطرة سلع النبطية في الشمال والحجْر في الجنوب (١٩)، وبين أنباط الشام وهم التدمريون. وقالوا: «خالط عرب الحيرة النبط منذ أيام بخت نصر» (٢٠).

الغريب أن التاريخ أغفل عن ذكرهم ولم يتعرض أهل المعاجم لهم في تفسير كلمة «نَبَطَ» فذكروا علاقة اللفظة بإنباط المياه، ونسبوا ذلك إلى نبط العراق بيد أن المؤرخين لم يغفلوا عن تسجيل صراع اللخميين أصحاب الحيرة مع التدمريين حين حاول جذيمة الأبرش السيطرة على تدمر بالتزوج من الزباء أو زنوبيا بعد قتل أبيها في حوادث مثقلة بالأساطير حفظتها لنا كتب التاريخ والأمثال والأدب في قولهم: «أمنع من عقاب الجو»، و«لأمر ما جدع قُصيرٌ أنفه» والبيت المشهور:

«ما للجمال مشيَها وئيدا
أجندلا يحملن أم حديدا»

حتى أن الطبري روى لنا أن بواب مدينة الزباء النبطي كان يتكلم الآرامية (٢١)، وهذا ليس غريبًا في الشام وفلسطين وشمال الحجاز لأن الآرامية كانت لغة التخاطب في كل هذه المناطق كما سنرى.

وقد ورد لثمود ذكر في القرآن الكريم فأشار إلى مدنهم المنحوتة في الجبال، في قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ولقد كذَّب أصحاب الحجْر المرسلين. وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾، فسماهم «أصحاب الحجر». وهم عند المفسرين «قوم صالح» الذين عقروا الناقة. ومن هنا جاءت تسمية الحجْر بمدائن صالح اليوم. وفي سورة الأعراف قول الله تعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورًا وتنحتون الجبال بيوتًا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، وفي سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين﴾. والأنباط خلَّفوا ثمودًا تاريخيًا في مناطقهم، واقتبسوا نمط عمارتهم دون خطهم الذي كان أقرب إلى المسند منه للخط الآرامي المشتق من الخط الفنيقي تبعًا للبيئة الثقافية الآرامية المسيطرة إذ ذاك.

لقد كان الأنباط عربًا أقرب إلى قريش وإلى القبائل الحجازية (٢٢) التي أدركت الإسلام منهم إلى اللحيانيين والثموديين والديدانيين والصفويين الذين سكنوا هذه المناطق في فترات مختلفة من التاريخ (٢٣) وتختلف نقوش هؤلاء المشتقة في غالبها من المسند اختلافًا بيِّنًا عن نقوش الأنباط. بل إن الأنباط يشاركون قريشًا في أكثر أسماء الأشخاص كما يشاركونهم في عبادة أكثر الأصنام المعروف عند قريش (١٧)، ومن كل هذه الدلائل الثابتة علمياً وعملياً فإنه ليس هناك أحد من الباحثين من يشك حتى اليوم في أصلهم العربي الذي يشاركهم في ذلك أهل مدين (٢٤) أو قوم شعيب الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم مع موسى - عليه السلام -؛ ووردت أخبار حروب المدينيين ضد العبريين والأدوميين والتجاء الأمير حداد الأدومي إليهم كما رواها العهد القديم (٢٥).

ولهم ذكر واسع في التواريخ الرومانية باسم Nabataei أو Nabathae. واستعمل الشعراء الرومان لفظة nabathaeus بمعنى الأقوام الشرقية. أما عند المؤرخين اليونانيين فهم nabataîoi أو nabaténoi. ومع هذا فقد ذكرت سجلات آشوربانيبال، الذي حكم ما بين ٦٦٨ - ٦٢٦ قبل الميلاد، قوم نباياتي Nabayâti، التي فسرها الباحثون بالنبطيين مرة وبالعرب أبناء نبايوت ابن إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - مرة أخرى.

وليس هناك من يشك أيضًا في أنهم كانوا بدواً عمهم الثراء في فترة من فترات تاريخهم فاستقروا وأنشأوا البتراء (وهو الاسم الروماني Petra الذي يعني الصخرة أو سلع وهو الاسم الآرامي) في الشمال

والحِجْر أو مدائن صالح في الجنوب على طرق التجارة التي كانت قريش تسلكها إلى الشمال؛ ومن هنا كان المكيون أكتب من المدنيين لاتصالهم التجاري المستمر مع الشمال فطلب النبي - صلى الله عليه وسلم - من أسراهم بعد معركة بدر تعليم صبيان المدينة الكتابة بالخط العربي كما هو معروف ومشهور .

ثم إن الخط النبطي في صورته الأخيرة قريب جداً من خط القرآن الكريم (٢٦) في صوره الأولى أو من نقش أسوان المؤرخ في سنة ٣١ للهجرة، أو من الوثائق البردية المؤرخة التي يعود أقدمها إلى سنة اثنتين وعشرين للهجرة أو من الرسائل النبوية التي وصل بعضها إلينا أو النقود النقائش القليلة التي وصلت إلينا من العصر الراشدي والأموي وهو ما يسمى بالخط المكي ثم المدني ثم الكوفي اليابس كما يظهر ذلك من مقارنته مع النقوش النبطية القليلة المنشورة حتى الآن في المصادر الأوربية والعربية الكثيرة التي عنيت بدراسة تاريخهم ولغتهم (٢٧) .

وقد امتدت مملكة الأنباط من قاعدتيها سلع أو البتراء في الشمال، التي كانت قبل استيلائهم عليها عاصمة الإيدوميين، والحجر أو مدائن صالح في الجنوب إلى مناطق واسعة شملت دمشق والأقسام الجنوبية الشرقية من فلسطين وحوران وإدوم ومدين وسواحل البحر الأحمر (٢٨) . وثبت تاريخياً أيضاً أن جماعة من الأنباط سكنت في الأقسام الشرقية من دلتا النيل، ولهذا أطلق المؤرخ اليهودي يوسيفوس اسم بلاد الأنباط على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتتصل بحدود الشام إلى البحر الأحمر، والتي دعاها مناطق أولاد إسماعيل (٢٩) . ولعل يوسيفوس كان أول من وجد صلة بين اسم نبايوت nebâjôt - وهو الاسم العبري لابن إسماعيل - وبين النبط، وإلى مثل هذا ذهب جيروم وهو أحد المؤرخين القدامى (٣٠) .

تاريخ الأنباط السياسي والحضاري

أما تاريخ الأنباط السياسي فإنه ينحصر ما بين بداية القرن الخامس قبل الميلاد وسنة ١٠٦ - ١٠٧ ميلادية حين استطاع الإمبراطور الروماني تراجان بقيادة كورنيليوس بالما حاكم سورية السيطرة على مدنهم وضمها إلى الإمبراطورية الرومانية . بيد أن تأثيرهم الحضاري على شمال الجزيرة العربية استمر حتى القرن الرابع للميلاد أو بعده .

لقد كان موقع مملكة الأنباط الجغرافي عاملاً مهمّاً في ازدهارها التجاري فقد كانت تلتقي عند مملكة الأنباط جملة من طرق التجارة البرية التي كانت عماد طرق القوافل إذ ذاك . فقد كان يصل إليها طريق اليمن والعربية الجنوبية والحبشة المهم الموازي للبحر الأحمر ومنها كان يتفرع الطريق إلى مصر والشام وغزة والمدن الفينيقية على البحر الأبيض المتوسط، وإليها يصل طريق تجاري مهم أيضاً يصل ميناء جرها على الخليج العربي بمدينة سلع أو البتراء - كما تسمى - حيث تصل تجارة الهند وما وراء الهند وإيران وغيرها لتوزع منها إلى الشام ومصر والحجاز واليمن (٣١) ، وشمالاً إلى ما سمي بـ : بيزنطية وما وراءها من البلدان الرومانية الأوربية الأخرى أومن جرها إلى الأبلّة على خليج البصرة الحالية وشمالاً إلى بيزنطية . واستمر هذا الطريق سالكاً حتى العصر الأموي مما نراه من إشارة في كتاب تهذيب الآثار للطبري (٣٢) ؛ إذ ذكر أن معاوية بن أبي سفيان أرسل أصنام ذهب وفضة غنمها من البيزنطيين في سفينة من سلسلة واسط إلى الهند لتباع هناك . وذكر ابن حجر أن أبا موسى إسرائيل بن موسى البصري المتوفى سنة ١٤٤هـ كان يسافر في التجارة إلى الهند وقد أقام بها مدة (٣٣) . ويؤكد علاقة الهند التجارية القديمة ما قال الصعق وهو جد قيس بن عمرو بن خويلد بن نفيل الكلابي لعمر بن الخطاب في أبيات يذم فيها العمال (٣٤) :

إذا التاجر الهندي جاء بفارة

من المسك أضحتّ في مفارقهم تجري

وكان من نتيجة ازدهار اقتصاد الأنباط أن الملك النبطي حارثة الثالث استطاع أن يسيطر على دمشق عاصمة السلوقيين الرومان، فسيطر بذلك على الطريق بين سلع (البتراء) ودمشق عبر مأدبة وعمان وبصرى. ثم ما لبث بصرى أن أصبحت مركزاً تجارياً مهماً أيضاً مما هيأ للأنباط الاتصال بالحضارة الآرامية العربية النجار أيضًا، والتي كانت سائدة في هذه المناطق فكتبوا لغتهم وحسابهم بلهجة آرامية يظهر فيها تأثير اللغة العربية واضحًا دون شك.

وقد أظهر اكتشاف بعض معاهداتهم التجارية المكتوبة على أوراق البردي في سنة ١٩٥١م، التي تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد مستوى عاليًا من التنظيم الإداري والتجاري بيد أن الباحثين في هذه الوثائق أرجعوا خطها إلى الخط اليوناني وهو دون شك خط نبطي يشبه خطوط النقوش المكتشفة في مناطق متعددة.

لقد كان التأثير الآرامي قوياً في واحة تيماء (٣٥) التي كانت لفترة قصيرة عاصمة النبودين البابليين من سنة ٥٥٦ إلى سنة ٥٣٩ قبل الميلاد فسكنتها أقوام من ثقافات مختلفة تمت كلها إلى الآرامية بصلة، ومنهم اليهود، في عصور مختلفة من التاريخ. وفي تيماء الحصن الأبلق للسموأل بن عاديا الذي اشتهرت قصته مع امرئ القيس الكندي. وقد أشار الشاعر الشماخ في إحدى قصائده إلى وجود اليهودية بتيماء فقال:

كما خط عبرانيةً بيمينه

بتيماءَ حَبْرٌ ثم عرَّض أسطرا

ثم كانت هنا أيضًا مملكة ديدان الواقعة شمال العلا الحالية مركزاً حضارياً للحيانيين الذين استعملوا خطاً مشتقًا من المسند إلا أنهم مع ذلك استعملوا الخط النبطي أيضًا مثل: «مسعود ملك اللحيان» الذي يظهر في أحد النقوش (٣٦) ثم كانت هناك مملكة ثمود ﴿الذين جابوا الصخر بالواد﴾ الذين ذكرتهم الكتابات الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد فكانت ديارهم في Egra أو الحجر الواقعة شمال ديدان فإنهم أيضًا استعملوا خطاً آخر مشتقًا من المسند. وهذا كله مدروس محقق ومنشور. وما زالت البحوث تظهر حول نقوشهم المكتشفة حديثًا.

وقد أدى غنى مملكة الأنباط وسيطرتهم على طرق التجارة إلى منافسة البطالمة لهم في السيطرة على البحر الأحمر واحتكار التجارة البحرية وتوجيهها إلى مصر، فاضطر الأنباط إلى مهاجمة السفن المتجهة إلى مصر وأخذ ما فيها فهاجمهم بطليموس الثاني الذي حكم مصر ما بين سنة ٢٨٢ - ٢٤٦ قبل الميلاد وألحق خسائر فادحة بالأسطول النبطي (٣٧). ومع هذا فإن الأنباط استطاعوا منذ القرن الرابع قبل الميلاد الهيمنة على طرق التجارة بين جنوب الجزيرة العربية والحبشة (أثيوبية) والشام ومصر والهند. ومن الهند كانت تمر البضائع عبر اليمن على طريق صنعاء - مكة - العلا - الحجر - سلع؛ أو عبر ميناء جرها على الخليج العربي، ومنها كانت توزع إلى مصر واليونان ومنها إلى أوربا الرومانية.

الأنباط قبائل عربية الأصل أغارت على بلاد آرامية فتأثرت بحضارتها واستعملت اللغة والكتابة الآرامية في النقوش وسائر الشئون العمرانية بيد أنها ظلت تتكلم وتستعمل اللغة العربية المتأثرة بالآرامية في شئونها وأحاديثها اليومية (٣٨)، كما رأينا عند بوّاب الزباء في رواية الطبري. فشأنهم في هذا يشبه إلى حد كبير شأن الأكديين الذين تأثروا بالحضارة السومرية إلا أنهم حافظوا على لغتهم العربية التي تأثرت باللغة السومرية كما يظهر ذلك واضحًا في البحوث الحديثة (٣٩). بل إن الآراميين لم يكونوا غرباء أيضًا فهم عرب أيضًا هاجروا من نجد في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد واستوطنوا وادي الرافدين ثم نزحوا إلى شرق البحر

الأبيض المتوسط في حدود ١٠١٢ و ٩٧٢ قبل الميلاد وأنشأوا مدنهم في سوريا وفلسطين ما بين الإمبراطوريتين الكبيرتين إذ ذاك : الآشورية والمصرية . ومع أن دورهم السياسي انتهى في حدود سنة ٧٣٣ قبل الميلاد على أيدي الآشوريين إلا أن دورهم الحضاري لم ينقطع إذ أصبحت اللغة الآرامية اللغة الرسمية عند الآشوريين والمصريين والفرس على حد سواء فاستعملوها في المراسلات الدبلوماسية والتجارية (٤٠)، شأنهم إذ ذاك شأن الإنجليزية في عصرنا . بل إنها أصبحت اللغة التجارية الأولى لمناطق امتدت من مصر إلى آسيا الوسطى وغرب الهند وشمالها الغربي . بل إن الفترة التي شهدت سقوط الآراميين في عام ٧٣٣ - ٧٣٢ قبل الميلاد كانت هي البداية لظهور وانتشار الثقافة واللغة الآرامية التي أثرت في معظم مناطق الشرق الأدنى القديم (٤١) . ولما استعمل السلوقيون اللغة اليونانية في حدود سنة ٣٢٣ قبل الميلاد كلغة رسمية في فلسطين والشام وشمال الجزيرة العربية، ظلت اللغة الآرامية لغة التخاطب أكثر منها لغة الكتابة، وكانت اللغة التي تكلم بها السيد المسيح - عليه السلام - إلا أن المدن الآرامية في الوقت نفسه انفردت عن غيرها بلهجاتها الخاصة مثل لهجة مدينة بالميرا وبيترا وأوديسا وحترا كما تسمى في الكتابات الاستشراقية، وهي : تدمر والبتراء والرها والحضر، واختفت اللغة الآرامية الأولى التي كانت تسمى اللغة الملكية الإمبراطورية وحلت محلها اللهجات الآرامية التي كتب بها الأنباط ويهود فلسطين وسكان الرها (أوديسا) . ومن هؤلاء جاء لنا الخط العربي والعبري والسرياني .

إن النقوش التي درسها بعض العلماء في الشرق والغرب تبرز حقيقة تاريخية حضارية مرت بها الجماعات البشرية عبر التاريخ بما فيهم الأنباط وهي أن الأنباط كانوا بدواً نزحوا من مكان ما في الجزيرة العربية إلى مناطق سادتها الحضارة الآرامية فتأثروا بها وقلدوها فكتبوا بالحروف الآرامية بيد أنهم ظلوا يتكلمون لهجة من لهجات العربية فحاولوا تصوير الحروف الآرامية إذ لم تكن لهم حروف خاصة بهم . فلما استقروا سياسياً واقتصادياً طوروا الخط الآرامي وولدوا منه الخط الذي عرف بالخط النبطي، كما نرى ذلك واضحًا في النقوش المرفقة . وهو كأي مظهر حضاري لابد أن يعتريه التطور إذ إنه بدأ خطاً آرامياً يميل إلى التربيع ثم ابتعد بمرور الزمن شيئًا فشيئًا عن التربيع إلى التدوير . ولم يزل يتطور حتى بدأ يأخذ أشكالاً بعيدة تمامًا عن الخط الآرامي، ويقترب جداً من الخطوط العربية الجاهلية التي تعلمها عرب الحجاز منهم نظراً لأن عرب الأنباط كانوا أعرق في الحضارة منهم بيد أن الجوار والاتصال الدائم والمباشر معهم في رحلاتهم المستمرة إلى الشام فرض التعاون، والتعاون لا يتم إلا بعد تجاوب ينشأ عن العنصرين اللذين تتولد منهما العلاقات بين الشعوب : العنصر المادي والعنصر الروحي لأنهم، كما قلنا، كانوا يشاركون قريشاً في آلهتهم وبالتالي لغتهم .

إن تطور الخط العربي عن الخط النبطي لم يكن ظاهرة بشرية فريدة في التاريخ فإن هيرودت يحدثنا عن الكتابة اليونانية فيقول : «لقد أدخل الفينيقيون إلى بلاد اليونان مجموعة كبيرة من مختلف الفنون، وكان من بينها الكتابة، وهو - على حد علمي - ما لم يكن يعرفه الإغريق من قبل . وفي البداية جعل الإغريق حروفهم كالحروف الفينيقية تمامًا ولكن لغتهم بمرور الزمن أخذت تتغير شيئًا فشيئًا وتغيرت تبعًا لها أشكال الحروف» (٤٢)، وهذا بالضبط ما حدث للخط النبطي وللأرقام النبطية .

الأنباط والأرقام

لم يقتصر تأثير الأنباط على الخط فحسب بل تعداه إلى مظهرين حضاريين ما زال العالم العربي والإسلامي يتخبط فيهما؛ وهما التواريخ بحساب الجُمَّل والأرقام

التي تُستعمل في الشرق وتلك التي يستعملها الغرب والأقطار العربية في شمال أفريقيا . فقد كثر الداعون الذين تبنّوا دعوة مجلة اللسان العربي (التي تصدر عن المكتب الدائم لتنسيق التعريب في المغرب في الوطن العربي) إلى نبذ الأرقام المستعملة في الشرق على أنها هندية الأصل والنجار والتحول إلى استعمال الأرقام التي يستعملها الغرب الأوربي لأن الغربيين - كما يقول هؤلاء الدعاة المنبهرون - يسمونها الأرقام العربية، وهي لذلك أكثر أصالة في الدول العربية من الهندية الغربية . بل إن بعض الحكومات الشرقية ومؤسساتها الثقافية ذهبت إلى أبعد من ذلك فتبنت هذه الفكرة وطبقتها عملياً في منشوراتها الرسمية غير عابئة باحتجاجات علمائها، وتبعتها بعض الصحف المهاجرة في الغرب مثل جريدة الشرق الأوسط السعودية، وهذا والله افتئات على الحق وتزوير للتاريخ لا يقول به إلا من ليس له حظ من العلم والمعرفة في استقراء تاريخ الخط العربي من خلال المخطوطات القديمة أو الوثائق والنقائش . فهل قول الأوربيين إن هذه الأرقام التي عندهم هي عربية يجعلها عربية النجار حقاً ؟ أم إن الجهل بتاريخ هذه الأمة جعل بعض متعالميها يركضون وراء كل ناعق وزامر ؟

الحق الذي لا مراء فيه أن الأرقام التي يستعملها الغرب إنما هي هندية سنسكريتية آرية برهمية الأصل جاءت إلى الغرب من الترجمات العربية لكتب الحساب الهندي، فلما ترجمت هذه الكتب من العربية إلى اللاتينية ظن الأوربيون أنها أرقام عربية فسموها Arabic Numerals لأنها جاءت إليهم عبر العرب . أما الأرقام الشائعة في المشرق العربي فهي آرامية - فينيقية - نبطية - تدمرية فهي لذلك عربية الأصل والنجار لا شك فيها إطلاقًا ولا عبرة ولا اعتبار بما يقوله الإقليميون من الإخوة المغاربة (٤٣) أو المقلدون من المشارقة ، فإن حقائق التاريخ العلمية يجب أن لا تستند على عواطف محلية بل على أسس علمية منطقية محضة وبراهين وثائقية لا شك فيها مما يستنبطه الباحث من الاكتشافات المستمرة للنقوش والوثائق، ومن هنا فإنها يجب أن لا تخضع لميل إقليمي أو هوى شخصي أو تعصب بغيض لهما . فقد أظهر كتيب صغير لمستشرقتين إسبانيتين حول الأرقام التي استعملها أهل الأندلس حتى القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد) أن أهل الأندلس لم يستعملوا الأرقام السنسكريتية قط والتي يُصرُّ الإخوة في المغرب على عروبتها (٤٤) ، بل إن جملة من أرقامهم أقرب إلى الأرقام المشرقية العربية منها إلى السنسكريتية . ونشر كونسالس بالنثيا مقالة حول الأرقام التي كان المضرّبون من أهل طليطلة يستعملونها في القرن العاشر والحادي عشر (٤٥) (السادس والسابع للهجرة) وعلق عليها كل من رتر H.Ritter وليفي دي لافيدا Levi Della Fida فأثبت هؤلاء أن الأرقام التي تستعمل في الأندلس إنما هي الأرقام الفارسية التي تعود في أصلها للأرقام اليونانية القبطية (٤٦) التي نجد لها آثاراً كثيرةً في المخطوطات (٤٧) المنسوخة في الأندلس والمغرب ومصر (٤٨)، وهي خالية من استعمال الصفر . وقد سبق أن كتب أحمد بن الحاج العياشي سكيرج الخزرجي رسالة قال فيها : «هذا شرح لطيف وضعته على المنظومة الموضوعة في صفة أشكال القلم الفاسي للعارف بالله سيدي عبدالقادر الفاسي . . . سميته إرشاد المتعلم والناسي في صفة أشكال القلم الفاسي» (٤٩) فانتفت حجة من يقول إن الأرقام التي يستعملها الغرب الأوربي وصلت إليهم عبر الأندلس من المغرب (٥٠) ، بل إن أرقام الغرب وصلت إليهم من الأندلس أو صقلية أو بادوا مباشرة بعد أن ترجمت كتب الحساب الهندي والجبر والمقابلة للخوارزمي وللفزاري من العربية إلى اللاتينية في طليطلة أو غيرها في القرن الثاني عشر

للميلاد، بعد أن أدخل العرب استعمال الصفر في العمليات الحسابية الذي ساعد على طرد الأرقام الرومانية والقبطية اليونانية (٥١) (التي استعملت الحروف في قيمتها العددية) من الاستعمال لخلوهما من الصفر.

وقد استمر الحسّابون يستعملون الأرقام السنسكريتية لوحدها أو مع النبطية العربية في كتبهم منذ بداية القرن الرابع للهجرة في المشرق والمغرب وأطلقوا على كتبهم مسمى «الحساب الهندي» لأن علم الحساب جاء إليهم من الهنود كما يظهر من مخطوطات علم الحساب مثل: رسالة في كيفية رسوم الهند في تعلم الحساب ورسالة في أنّ رأي العب في مراتب العدد أصوب من رأي الهند فيها للبيروني أو كتاب الفصول في الحساب الهندي للاقليدسي أو أصول حساب الهند لكوشيار الجيلي أو نزهة النظّار في علم القلم الهندي الغبار لابن الهائم وغير ذلك كثير، ويؤيد ما ذهبنا إليه قول ابن الياسمين المتوفى بمراكش سنة ٦٠١هـ الذي قال: «اعلم أن الرسوم التي وضعت للعدد تسعة أشكال يتركب عليها جميع العدد، وهي التي تسمى أشكال الغبار وهي هذه... وقد تكون أيضًا هكذا... ولكن الناس عندنا على الوضع الأول، ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز، ووجه العمل على حاله لا يتبدل» (٥٢).

وهذا مجال قد أسهبت في الحديث عنه في كتاب قادم- إن شاء الله تعالى - حول الأرقام وأصولها وتطورها.

فمن غير المقبول عقلاً ومنطقًا أن يقتبس الأنباط خطهم وتواريخهم بحساب الجمل من الآراميين (٥٣) ويتركون طرائق حساباتهم بالأرقام. ومن غير المقبول عقلاً أنهم وقد بلغوا من السمو الحضاري والتجاري ثم لم يستعملوا أرقامًا معينة خاصة بهم في الحساب مما تفرضه المعاملات التجارية عليهم، فقد كان منهم تجار يهبطون الأسواق العالمية في الإسكندرية وفي الشام واليونان والعراق والحبشة والهند فالشئون التجارية تستلزم القدرة على الكتابة والقراءة والحساب لمعرفة نوع البضاعة وثمنها ومقدار رأس المال ومبلغ الربح والخسارة. ولا يمكننا أن نفترض أن كل تاجر نبطي كان بذاكرة تغنيه عن تقييد أعماله وحساباته وكل ما يحتاج إليه العمل التجاري ولا سيما أن أكثر الذين يتنقلون بين الأسواق كانوا يتاجرون برأس مال مشترك أو لحساب غيرهم. بل إن الثابت من النقائش أنهم استعملوا الأرقام إضافة إلى حساب الجمَّل فعلاً فانتقلت هذه الأرقام مع الخط إلى الهند وإلى عرب الحجاز قبل الإسلام ومن ثم إلى البلدان الإسلامية الأخرى بعد الفتوح بعد أن مرت بفترات طويلة من التطور والتغيير، وهذا يتفق مع ما رواه النديم والبيروني عن الأرقام التي عرفوها في الهند والسند.

أما حساب الجمل في التواريخ واستقراء الحوادث الكونية الشائع عند الحروفيين من الصوفية وعند نحلة البابية والبهائية وعند اليهود في قبالتهم وعند الهنود واليونانيين والأقباط على طريقة أبجد هوَّز السامية فهو آرامي الأصل عربي النشأة أيضًا استعمله الأنباط في تواريخ حوادثهم ووفياتهم، وهو الذي نجد له آثارًا في التوراة. بل إن هذا النظام الذي يظهر في النقوش الآرامية والنبطية قد انتقل منهم إلى وادي الأندوس في الهند بحكم العلاقات التجارية. وإلى هذا أشار محمد ابن إسحق النديم (ت ٣٨٠هـ) في حديثه عن السنْد فقال: «هؤلاء القوم مختلفي اللغات، مختلفي المذاهَب ولهم أقلام عدة... إنهم في الأكثر يكتبون بالتسعة أحرف على هذا المثال وهذا هو حساب الجمل في استعمال الحروف بدلاً من الأرقام. وإلى هذا النظام أشار اليهود في محاججتهم النبي - عليه الصلاة والسلام - كما رواه ابن إسحق في السيرة النبوية» (٥٤). بل إن هذا النظام استقر ثابتًا في كتب الزيج وصناعة الأسطرلاب.

الأنباط والخط العربي

الخط في طبيعته الأساسية مظهر حضاري يفرضه التطور الحضاري على الأمم، فإن الكلام سبق الكتابة والكتابة وسيلة لتسجيل الكلام ونقله من الصوت إلى الحرف، فكان لابد أن يتوافق الصوت مع الحرف الذي يتلون بطبيعة اللغة وإرادة المتكلم إضافة إلى البيئة التي أمدت المتكلم بأسباب اللغة أولاً. فإن البيئة التي لا يوجد فيها الكانغرو مثلاً لا تحتوي على هذه اللفظة إلا أنه يمكن استعارتها إذا حدث احتكاك حضاري بأية صورة كانت، وهذا ما حدث في التاريخ فقد اكتشف السومريون الكتابة بعد أن وصلت حضارتهم إلى المستوى الذي أجبرهم على اكتشافها عمداً أو عفواً إلا أن الأمم الأخرى التي استعملت الحروف السومرية المسمارية أخضعت هذه الكتابة للتغيير لكي تتلاءم مع طبيعة لغتهم وبيئتهم فكتب بها الأكديون والبابليون بلغاتهم ففقدت صورتها الأولى وكثيراً من حروفها، ويصح الأمر أيضًا على الأنباط والتدمريين وغيرهم فإنهم وجدوا الآراميين يكتبون لغتهم بحروف لم يتلاءم بعضها مع لغتهم فكتبوا بهذه الحروف إلا أنهم أخضعوها للتغيير لكي تتلاءم مع لغتهم الكلامية ففقدت الآرامية بعض حروفها وهذا شأن كل حدث حضاري إذ لابدَّ أن يخضع للتغيير والتطور، فكانت بداية التحول من الكتابة السينائية البدائية إلى خطوط أوضح فأوضح وهذا ما نراه في النقائش التي نشرت حديثًا إذ ابتدأ الخط النبطي يبتعد عن الخط الآرامي المربع بينما احتفظ الخط العبري به حتى اليوم ثم عراه تطور آخر فابتعد تمامًا عن الخط الآرامي، واكتسب صورة جديدة لا تمت إلى الخط الآرامي بصلة بالرغم من احتفاظ لغته بالتأثير الآرامي. وهذا ما نراه واضحًا في نقش النمارة ونقش زيد ونقشي أم الجمال ونقش حران وغير ذلك (٥٥)، حيث أخذ شكله النهائي في النقوش العربية التي وصلت إلينا حتى اليوم من الجاهلية ومن صدر الإسلام وتطور بمرور القرون إلى الخطوط التي نعرفها اليوم نتيجة الاستقرار الحضاري والتطور الفني (٥٦).

الخط العربي وأنماطه

أما أنماطه فهي كثيرة كما تظهر في «فن الخط العربي وأنواعه» من كتاب الخط العربي من خلال المخطوطات الذي نشره مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض في سنة ١٤٠٦هـ؛ فقد اختفت أنماط كثيرة وبقيت أنماط وتطورت من كل ذلك أنماط اكتسبت مسميات اختلفت باختلاف العصور حتى استقرت الأنماط المعروفة وهي: النسخ والرقعة والتعليق والنستعليق والشكستة والديواني والثلث ثم الكوفي ومع كل هذه فإنَّ الخطاطين في العصر الحاضر ابتدعوا أنماطًا هجينة عجيبة غريبة اختلطت فيها الأنماط حتى في الكلمة الواحدة اختلاطًا مؤلمًا لأنّ أكثرهم لم يعن بالتعلم والأخذ عن شيوخ الخط حتى يصقل موهبته بل سارع إلى فتح مكتب تجاري للخط ليتعيش من موهبته الفجة فأساء للخط وأهله.

وهنا لابدَّ لي من كلمة أخيرة وهي أن كل كاتب ليس بالضرورة خطاطًا فإن بعض الناس أوتوا موهبة فيه وبعضهم عاطل عن هذه الموهبة. وهذه ظاهرة فنية لا تخلو منها جماعة من البشر. وشأنها في هذا شأن الرسم والشعر والخطابة وما إلى ذلك، وإلا كان كل البشر رسامين أو شعراء أو خطباء أو خطاطين، فإن الإنسان ميسر لما خلق له. وقد يبرز فرد أو أفراد في هذه الصنعة أو تلك فيبزُّون عن غيرهم، ويستنبطون مما لديهم نمطًا جديدًا فيضاف إليهم ويلصق باسمهم وإلا فإن ابن مقلة أو ابن البواب لم يبزوا كتّاب عصرهم إلا لأنهم طوروا ما جاء إليهم وحسّنوا ما وجدوه من الخط وقعّدوا له

القواعد فقيل طريقة ابن مقلة وطريقة ابن البواب ونسبوا طرائقهم إليهم فقالوا : فلان يكتب الخط المنسوب كما قيل في عروض الخليل بن أحمد الفراهيدي .

إضافة إلى كل هذا فإن البيئة الثقافية والفكرية لها أثر هائل فعّال في تلوين نمط الخط وأسلوبه في الأداء فتفرض عليه نمطًا يختلف في نظر الخبير عن الخطوط الأخرى التي ترعرعت في بيئات مختلفة أو حتى عند أفراد مختلفين ، ومن هنا كان خط النسخ في العراق وفي قرن معين مثلاً يختلف عن الخط ذاته في قطر آخر بيد أن السمات العامةَ لا تكاد تختلف إلا في التفاصيل . إلا أن بعض الأقطار انفردت بأنماط معينة مثل الخط المغربي والأندلسي وما اشتق منهما إذ حافظا على سمات الخط الكوفي اللين . ولهذا يستطيع الخبير أن يدرك بإحساسه وذوقه وتجربته ومرانه أن هذا نسخ يمني ، وذاك مملوكي والآخر نسخ أندلسي أو مغربي أو تونسي أو سوداني من جنوب الصحراء الأفريقية أو كردي من شرق تركيا الحالية وما إلى ذلك . ويصح هذا القياس الفني على بقية الخطوط وينْجَرُّ هذا القياس على خطوط العلماء والنساخ أيضًا ؛ فإن خط الذهبي هو غير خط السخاوي أو خط ابن الجوزي أو ابن فهد المكي أو السيوطي أو ابن حجر فإن لكل كاتب سمات خطيةً تختلف تمامًا عن سمات الخطوط الأخرى ، بلْ إن الخطوط تختلف من عصر إلى عصر حتى في القطر الواحد ، وقد تختلف الخطوط عند ناسخ واحد حين يخلط بين النسخ والتعليق والرقعة مثلاً في سطر واحد أو صفحة واحدة أو في مخطوطة واحدة ، وقد يختلف الخط أيضًا تبعًا لعمر الناسخ ، وما عليكم إلا أن تقارنوا بين خطوطكم لتروا الفروق الهائلة . إذ ليس المفروض أن كل ناسخ يعرف القواعد الخطية الدقيقة لهذا النمط أو ذاك ، ومن هنا اختلفت خطوط المخطوطات إنْ جودةً أو رداءةً تبعًا لخط الناسخ وتبعًا لأصالة موهبته أوضعفها ، وتبعًا للجو العلمي والثقافي كما حدث عند الخطاطين الأتراك الذين وصلوا بالخط وإجادته إلى مستوىً لم تصل إليه إمة من الأمم الإسلامية بعد ، وعلى أيدي هؤلاء الخطاطين تخرَّج أشهر خطاطي العالم العربي والإسلامي .

ومع كل هذا فإنني أذكر هنا طريقة خطية قرأتها في مكان ما ، هي إن أحد المؤلفين كان يعيَّر برداءة خطه ورذالته بين الخطوط فصار دأبه الدخول إلى سوق الوراقين للبحث عن كتاب مكتوب بخط أردأ من خطة فعثر يومًا على كتاب سيئ الخط فاشتراه وأسرع به إلى معيريه ليريهم إن خطه ليس سيئًا وإن هناك ما هو أرذل من خطه فلما تفحصه الملأ وجدوه بخطه الذي كتب به الكتاب في صباه .

إن الخطوط في المخطوطات التي تمر على يد المفهرس تكاد تكون محدودة الأنماط والأساليب لأن الكثرة الغالبة منها كتبها نساخ محترفون استعملوا النسخ والتعليق والنستعليق والشكستة والرقعة والقليل استعمل الثلث أو الديواني أو الكوفي بأنماطه العديدة إلا في المراسلات السلطانية أو نقائش العمائر وشواهد القبور وكتابة نسخ القرآن العزيز في القرون الأولى .

وتختلف كل هذه الخطوط من بلد إلى آخر ومن نسخ إلى آخر ولا يدرك الفروق إلا خبير فقد سأل المعتصم العباسي نديمه إسحق الموصلي - المغني العباسي المشهور - عن معرفة النغمة وكيف يميز بينها على تشابهها واختلافها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين من الأشياء ما يحيط به العلم ولا تؤديه الصفة (٥٧) ، فإن الكثير من المفهرسين يعرفون الفروق ولكنهم لا يستطيعون وصفها لأنفسهم ناهيك عن وصفها لغيرهم . وقد يلجأ بعض المفهرسين لجهله بالخطوط إلى استعمال مصطلح «خط معتاد» إذ ليس هناك في عالم الخطوط نمط يسمى بالخط المعتاد إطلاقًا (٥٨) ، فهو أما نسخ تدويني أو نسخ مشوب برقعة مثلاً أو نسخ واضح قوي أو نسخ مجوَّد أو نسخ رئاسي ، تبعًا لقوة الخط أو ضعفه ، والنسخ الرئاسي

أجودها لقربه من الكوفي اللين وهو الخط الذي كتبت به الوثائق البردية عمومًا، والمخطوطات في القرون الأربعة الأولى على الأغلب . وليس هناك خط فارسي كماهو شائع الآن بين محترفي الخط، فهو إما تعليق أو نستعليق وهو أما تعليق أو نستعليق فارسي أو تركي أو هندي أو غيرها . وكل هذه لها خصائص وسمات يعرفها المتدرب عليها. وخط النستعليق - كما يظهر من اسمه - فهو خلط بين خط النسخ وخط التعليق . أما خط الشكستة الذي اختص به النساخ الإيرانيون فهو نستعليق خلط بين خط الرقعة وخط التعليق . وهناك خطوط قلَّ ما تمر على يد المفهرس مثل خط السياقت والقرمة وهما خطان اختص بهما كتاب الدواوين العثمانية ولا توجد إلا في الوثائق الديوانية العثمانية وهما يشبهان إلى حد كبير ما نسميه اليوم الخط المختصر أو short hand والظاهر أنه امتداد أو اختصار للخط الذي استعمله كتَّاب الإنشاء في الدواوين المملوكية منذ القرن السابع للهجرة كما يظهر ذلك في وثائق طور سيناء والوثائق المملوكية التي وصلت إلينا .

قائمة مختارة بأهم مراجع الخط العربي

١ - انظر : «مراجع الخط العربي» لخالد أحمد اليوسف وأمين سليمان سيدو في : كتاب الخط العربي من خلال المخطوطات، الرياض١٤٠٦هـ، صفحة ٢٤١ - ٢٥٤ .

٢ - نشأة الخط العربي، لمحمد أبي الفرج العش، في : مجلة الحوليات الأثرية السورية، ج٢٣ (١٩٧٣).

٣ - إبراهيم جمعة، دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة دار الفكر العربي بالقاهرة، د . ت .

٤ - إبراهيم ضمرة، الخط العربي - جذوره وتطوره ، مكتبة المنار - الأردن ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ .

٥ - محمد طاهر الكردي، الخط العربي وآدابه ، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، الرياض ١٤٠٢هـ.

٦ - محمد عبدالجواد الأصمعي، تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام، دار المعارف ١٩٧١ .

٧ - محمد ماهر حمادة، الكتاب العربي مخطوطًا ومطبوعًا، دار العلوم بالرياض ١٤٠٤هـ .

٨ - محمد أمان، الكتب الإسلامية، ترجمة سعد بن عبدالله الضبيعان، مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٩٠ .

٩ - عبدالستار الحلوجي، المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ .

١٠ - عبدالعزيز الدالي، البرديات العربية، القاهرة ١٩٨٣ .

١١ - عبدالعزيز الدالي، الخطاطة - الكتابة العربية، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ .

١٢ - زكي صالح، الخط العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

١٣ - محمود شكر الجبوري، الخط العربي وتطوره، بغداد ١٩٧٤ .

١٤ - سهيلة ياسين الجبوري، الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، بغداد ١٩٦٢ .

١٥ - صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي، بيروت ١٩٧٢ .

١٦ - ناجي زين الدين، مصور الخط العربي، بغداد ١٩٦٠ .

١٧ - ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي، بغداد ١٩٧٢ .

١٨ - حسن قاسم حبش، الخط العربي الكوفي، السليمانية (العراق) ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ .

١٩ - هوداس، محاولة في الخط المغربي، تعريب عبدالمجيد تركي، أبحاث ودراسات في الغرب الإسلامي، نشرة

دار الغرب الإسلامي ، بيروت - تونس .
O. Houdas, Essai sur L'écriture maghrébine, in Nouveaux mélanges orientaux, 1886, 85-112.
٢٠- التاريخ العربي وبدايته والتاريخ العربي ومصادره، لأمين مدني دار المعارف بالقاهرة، د ت .
٢١- قاسم السامرائي، مقدمة في الوثائق الإسلامية، دار العلوم بالرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ .
٢٢- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٦٦ .
٢٣- Kühnel, Islamitsche Schrifkunst, Berlin 1942.
٢٤- محمد بن أحمد الزفتاوي المصري، منهاج الإصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة، تحقيق هلال ناجي، مجلة المورد، مجلد ١٥، عدد ٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، صفحة ١٨٥ - ٢٤٨ .
٢٥- محمد بن عبدالعزيز، ناظر الوقف وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٧٠، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨، ٢١٩ - ٢٤١ .
٢٦- خليل إبراهيم المعيقل : Khaleel Ibrahim al-Muaikel
Study of the Archaeology of the Jawf Region, King Fahad National Library - Riyad, 1414/1994.
درس فيه النقوش العربية في دومة الجندل، وكان أقدم هذه النقوش المنشورة فيه مؤرخًا في سنة ١٢١هـ.

صناعة الكاغد

ولابد للمفهرس أن يكون على معرفة واسعة بصناعة الكاغد في المشرق والمغرب أولاً وفي العالم الأوربي ثانيًا ؛ وقد ذكرتُ في كتاب الوثائق الإسلامية جملة من المقالات التي ظهرت حول صناعة الكاغد وهذه جملة أخرى تحتوى على بعض المعلومات :

١ - كيف بدأ التصنيع في المغرب لعبدالعزيز بن عبدالله، مجلة دعوة الحق، العدد ٢٦٧، صفر ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧، ٩١ - ١٠٠ .
٢ - تاريخ الكتابة التاريخية، لهاري إلمر بارنز، ترجمة محمد عبدالرحمن برج، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ .
٣ - تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، لـ : سفند دال، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة ١٩٥٨ .
٤ - تاريخ الكتاب، لـ : ألكسندر سيبشفيج Aleksandar Sipcevic في جزأين ترجمة محمد الأرناؤوط ، الكويت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ .

مراجع دراسة الأنباط والآراميين

ألحق كلٌ من رمزي بعلبكي في : الكتابة العربية والسامية وسليمان بن عبدالرحمن الذيبب في : Aramiac and Nabataen Inscriptions from N.W. Arabia وفي : دراسة تحليلية للنقوش الآرامية القديمة في تيماء، وخليل إبراهيم المعيقل في دراسته : Study of the Archaeology of the Jawf Rigion وجواد علي في : تاريخ العرب قبل الإسلام، قائمة كبيرة بمصادر دراسة الأنباط والآراميين والتدمريين وغيرهم، كلٌ حسب اهتمامه .

مراجع مختارةفي دراسة الأرقام

- **Susan Downey**, The Stone and Plaster Sculpture, **Univ. of California 1977.**
- **Genevieve Guitel**, Historie Comparée des **Numérations écrites**, Paris 1975.

- **G.G. Neill Wright**, The Writing of Arabic Numeral, **London 1952.**
- **Georges Ifrah**, From One to Zero, **penguin Books,** New york 1987.
- **G.F. Hill, The** Development of Arabic Numerals in Europe, **Oxford 1915.**
- **D.E. Smith and L.C. Karpinski,** The Hindu-Arabic Numeral, **London 1911.**
- **E.J. Rapson,** Specimens of Kharothi Inscrptions, **London 1905.**
- **D.Diringer,** The Alphabet, a Key to the History of Mankind, **London 1947.**
- F. Cajori, A History of Mathemarical Notations, **Chicago-London 1928.**

جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام والمفصل في تاريخ العرب .

أحمد سعيدان : قصة الأرقام والترقيم، عمان ١٩٦٩ : تاريخ علم الحساب، مجلة العربي، العدد ١٠٦ .

أحمد مطلوب : الأرقام العربية، بيروت ١٤٠٣هـ

سالم محمد الحميدة : الأرقام العربية ورحلة الأرقام، بغداد ١٩٧٥ .

قدري حافظ طوقان : تراث العربي العلمي في الرياضيات والفلك، القاهرة ١٩٤١ .

وهذه كلها تحتوي على جملة من المصادر الأخرى .

الهوامش

١ - محاضرة ألقيت أجزاء منها في الدورة التدريبية للمفهرسين التي نظمتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، في جامعة القاهرة يوم ١٥/١/١٩٩٤ وألقيت كاملة في دورة تدريبية أخرى في المكتبة السليمانية بإستانبول يوم ٢٩/٨/١٩٩٤ . عقدت الدورة الأولى ما بين ١/٣ - ٩/٢/١٩٩٤ والثانية ما بين ٢٩/٨ - ٣٠/٩/١٩٩٤ .

٢ - مشكلات فهرسة المخطوطات العربية، في : المخطوطات في المغرب الإسلامي، مؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٩٠، ٢١٥ - ٢٢٦ .

٣ - انظر : قاسم السامرائي : المسح الدولي للمخطوطات الإسلامية، إعداد مؤسسة الفرقان، في : مجلة عالم الكتب، مج١٥، عدد٣ (ذوالقعدة - ذو الحجة ١٤١٤هـ/ مايو - يونيو ١٩٩٤)، ٢٣٥ - ٢٦٥ .

٤ - الفهرست للنديم، تحقيق تجدد، طهران ١٣٩١هـ/ ١٩٩١ ,٧ - ٨ .

٥ - نشره جوزيف فون هامر ، لندن ١٨٠٦ .

٦ - نشره فؤاد سزكين في ستة أجزاء (أربعة مجلدات بالتصوير) شتوتجارت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤ .

٤ - الفهرست، المصدر نفسه .

٨ - انظر مصادر كتاب الكتابة العربية والسامية، لرمزي بعلبكي، بيروت ١٩٨١ .

٩ - كتاب الردة، للواقدي، هو ليس له، تحقيق يحيى الجبوري، بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠، ٢٢٨ .

١٠ - تاج العروس، للزبيدي ٥/ ٢٣٠ .

١١ - نشرة دي خوية، ليدن ١/ ٢٠٦١ .

١٢ - E.I.1V, p289 .

١٣ - تاج العروس، المصدر نفسه .

١٤ - ديوان حسان بن ثابت، تح وليد عرفات، سلسلة جب ١٩٧١، ٢/ ٩١ .

١٥ - الروض الأنف للسهيلي، تح عبدالرحمن الوكيل، القاهرة ١٩٧٠، ٧/ ٣٢٧ .

١٦ - الاكتفا في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفا للكلاعي، تح

مصطفى عبدالواحد، القاهرة ١٩٧٠.

١٧- معجم البلدان، لياقوت، ١/ ٢٥٧ : تاريخ الطبري ١/ ٧٤٨ نشره دي خويه .

١٨- تاريخ الطبري ١/ ٢٠٦، ٢١٨، ٢١٩، ٦٧٤، ٧٤٨، ٨٢١.

١٩- التي يسميها الجغرافيون : «ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، وبها كانت منازل ثمود»، معجم البلدان، ٢/ ٢٢١.

٢٠- الطبري ١/ ٦٧٤ .

٢١- ١/ ٧٦٦ من طبعة دي خويه .

٢٢- تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٣/ ١٣ .

٢٣- P.J.Parr, Archaeological Soures for the early History of N.W. Arabia, in Sources for the History of Arabia, **Riyad University 1979, Part1, pp.37-44.**

٢٤- Parr, p. 40 .

٢٥- **Bo Reiche-L. Rost** , Bibles'historisch wordenboek 111, **Utrecht Antwerpen 1969, p. 359.**

٢٦- جواد علي، المصدر نفسه ؛ E.I., V, 1155-1156.

٢٧- انظر فهرس المصادرعند رمزي بعلبكي مثلاً.

٢٨- جواد علي ، المصدر نفسه .

٢٩- Kennedy, Petra, 1925 .

٣٠- Josephus, Antiq., I, 12,4.

٣١- جواد علي، المصدر نفسه ٢/ ٤١٨؛ ٣/ ١٩؛ المفصل ١/ ١٤ وما بعدها .

٣٢- مسند الإمام علي ٢٤١ .

٣٣- فتح الباري ، القاهرة ١٣٩٠هـ، ١٣/ ٦٢ .

٣٤- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (القاهرة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩) ٣/ ١٧٠، ٢٦٠ .

٣٥- انظر كتاب دراسة تحليلية للنقوش الآرامية القديمة في تيماء، لسليمان ابن عبدالرحمن الذييب، مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤، فقد نشر المؤلف جملة من هذه النقوش وحللها تحليلاً علمياً وافياً فأحسن وأفاد .

٣٦- E. I., 1,562 .

٣٧- نقلاً من جواد علي ٣/ ١٩؛ Strabo,III, p. 204 وانظر ما كتبه جواد علي عن تاريخ الأنباط بعد هذه الحادثة في ٣/ ٢٠ - ٧٠.

٣٨- محاضرات ليتمان في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ نقلاً من خليل يحيى نامي، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية، مج٣،ع١ (١٩٣٥)، صفحة ٤٧؛ وانظر : الكتابة العربية والسامية لرمزي بعلبكي، بيروت ١٩٨١، صفحة ١٢٢ .

٣٩- أخذة كيش - أقدم نص أدبي في العالم ، تقديم وتحقيق البير نقاش وحسين زينه، بيروت ١٩٨٨، صفحة ٤٤ - ٤٦؛ طه باقر : من تراثنا اللغوي القديم ، المجمع العلمي العراقي ١٩٨٠، صفحة ٢١ . وانظر استعراض الكتاب في جريدة الحياة اللندنية، عدد ١٠٤٥٢، ١١ ربيع الأول ١٤١٢هـ/ ١٨ سبتمبر ١٩٩١ .

٤٠- انظر : سليمان بن عبدالرحمن الذييب، دراسة تحليلية للنقوش الآرامية القديمة في تيماء ، مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤، ٣٢.

٤١- المصدر نفسه ٢١ - ٢٨ .

٤٢- قصة الكتابة والطباعة لفرانسيس روجرز، ترجمة أحمد الصاوي، القاهرة ١٩٦٩، ١٠١ .

٤٣- انظر ما قاله عبدالهادي التازي في مجلة اللسان العربي، الجزء ٢ لسنة ١٩٦٥، ٣٦ .

٤٤- **Ana Labarte- Camen Dercedo,** Numerosy Cifras en Los Documentos Arabigohispano, **Cordoda 1988.**

٤٥- **A. Conzalez Palencia,** Los Mozarabes de Toledo en Los singlos **XIIy XIII.**

٤٦- ونشر كوديرا جملة من الأرقام الفارسية التي وجدها في كتاب الصلة في تاريخ الأندلس لابن بشكوال (مدريد ١٨٨٣) ، ٢/ x . انظر الملاحق .

٤٧- - Rivista degli Studi Orienta-li, XIv, 1936, 212, 281-

٤٨- انظر مثلاً : مقالة محمد الفاسي مخطوط جديد من تاريخ ابن حيان ، في الثقافة المغربية ، الجزء السادس لسنة ١٩٧٢ ، صفحة ٦ حول مخطوطة الجزء الخامس من كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان ، نسخة الخزانة الحسنية بالرباط برقم : ٧٨ ؛ مخطوطة المحاسن والأضداد للجاحظ ، مخطوطة ليدن برقم : Or. 1012 ومخطوطة التاريخ لابن المكين، مخطوطة ليدن برقم: Or. 125 ومخطوطة تاريخ الطبري، مخطوطة ليدن برقم: .Or 497 ، وأمثال ذلك كثير .

٤٩- طبع على الحجر في فاس د . ت . ، وكان قد فرغ منه سنة ١٣١٦هـ بروكلمان ملحق ٢/ ٨٨٢ .

٥٠- انظر : عبدالعزيز بن عبدالله ، فاس حاضرة الفكر في القارة الأفريقية ، مجلة المنهل، العدد ١٣ ، السنة الخامسة، المحرم ١٣٩٩ ، ١٦٨ . وقال إن البابا سلفستر الثاني درس في جامعة القرويين «وأدخل الأرقام العربية إلى أوربا ناقلاً صورها العددية من فاس وهي الأرقام التي سادت العالم اليوم باسم الأرقام العربية أو الغبارية» . الظاهر أن الكاتب لم يفرق بعد بين الأرقام العربية والغبارية والأرقام الفاسية . القبطية الأصل التي تظهر في مخطوطة : كتاب البيطرة للصاحب تاج الدين محمد بن محمد المعروف بابن حنا المتوفى سنة ٧٠٧هـ، وقد نشره فؤاد سزكين في فرانكفورت بالتصوير سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤ وفي مخطوطات كثيرة غيرها مثل كتاب الأنواء والأزمنة لابن عاصم الذي نشره سزكين أيضًا في سنة ١٩٨٥ .

٥١- انظر ما كتبه رمزي بعلبكي عن تطور استعمال الحروف وإعطائها أرقامًا عند الشعوب السامية وعند اليونانيين وغيرهم في : الكتابة العربية والسامية ٣١٨ - ٣٢٠ .

٥٢- تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار، نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط برقم : ٢٢٢ .

٥٣- المصدر نفسه ٣٢٠ .

٥٤- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري (القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥) ١/ ٥٤٦ في تفسير ﴿الم ذلك الكتاب﴾ .

٥٥- انظر الدراسة الممتعة لأكثر من ٩٠ نقشًا من النقوش النبطية والآرامية غير المنشورة من قبل، لسليمان بن عبدالرحمن الذييب : Aramaic and Nabataen Inscriptions from N.W. Saudi Arabia, Riyadh 1414 H./1993 باللغة الإنجليزية، من منشورات مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣ .

٥٦- ونشر عبدالقدوس الأنصاري بعض النقوش الثمودية والعربية القديمة غير المعروفة التي رآها في ترحاله العلمي فنشرها في كتابه النفيس : بين التاريخ والآثار، الطبعة الثالثة، مطابع الروضة - جدة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧ .

٥٧- لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء للثعالبي (بتحقيقي)، مؤسسة برل- ليدن ١٩٧٨، ٧٩ .

٥٨- أدخل صديقنا الراحل عبدالفتاح الحلو - رحمه الله وإيانا- هذا التعبير في كتاب : الخط العربي من خلال المخطوطات الذي نشره مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض بعد الانتهاء منه ، حين دعي زائرًا في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، دون علمي ودرايتي ، فأرجو المعذرة من طلابي إذ وجدوا في ذلك تناقضًا بين تدريسي لهم وما ظهر في الكتاب فهو ليس مني .

تجربتي في صنعة

«معجم البلاغة العربية»

بدوي طبانة
مجمع اللغة العربية
القاهرة

كان إصدار معجم للبلاغة العربية حديثًا للنفس، وحلمًا من الأحلام ظل يراودني سنين طوالاً في ربيع العمر مذ قدر لي أن أنحاز في دراستي العليا إلى مجال البلاغة والنقد الأدبي.

وقضيت في إعداد هذا المعجم خمسة وعشرين عامًا في البحث والتنقيب وتقليب المراجع المشهورة والمغمورة على السّواء لاستخلاص مادته العلمية.

وأقدمت على هذه التجربة مستعينًا بالله، وأنا مشغوف بها، ومطمئن إلى نتيجتها وجدواها، ومن وراء هذا الشغف غيرة على هذا التراث الخالد، وخوف عليه من عوادي الزمن، بعد أن ارتفعت أصوات غريبة تحاول أن تقوِّض هذا الصرح المكين، وتزهد طلاب المعرفة فيه، بدعوى صعوبة مناله، ووعورة السبيل إليه.

ولم أكن أعرف أن الصعوبة وحدها سبب كاف لانتقاص ما هو جيد في ذاته، أو لاطراح ما فيه خير كثير، بل إن صعوبة المطلب في نظري محكّ الرجال، ومختَبر للعزائم، وقديمًا قال الشاعر «على قدر أهل العزم تأتي العزائم» وكما قال «لولا المشقة ساد الناس كلهم»!.

ولو كان تحصيل العلوم كلها سهلاً ميسورًا لبطل التفاوت بين الناس وسقطت المحنَة، وماتت الخواطر. ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة.

وكلّ باب من أبواب العلم منه ما يجلّ، ومنه ما يدق، ليرتقي المتعلم فيه رتبة بعد رتبة، حتى يبلغ منتهاه، ويدرك أقصاه، ولتكون للعالم فضيلة النظر، وحسن الاستخراج. كما يقول ابن قتيبة.

وليس يشك منصف في أن تراثنا البلاغي جدير بالعناية به، ومواصلة البحث فيه، لأنه يمثل خلاصة ما اهتدت إليه الفطر السليمة، والأذواق الرفيعة لأسلافنا من علماء الأدب ونقدة الكلام الذين أرسوا دعائم هذا العلم النافع، وبنوا صرحه العتيد، بالإضافة إلى أن فن الأدب كان ولا يزال الفن المتميز الأثير عند أمتنا العربية.

وإذا كان هنالك علم للّغة وعلم للنحو وعلم للتصريف وغيرها من العلوم، فإن هذه العلوم تستهدف صحة العبارة وسلامة المنطق في كل كلام يتعامل به أصحاب اللغة، إذ إنها «علوم صحة» توقِّف على الصواب ليحتذى، وعلى الخطأ حتى لا يقع فيه متكلم يدّعي أنه يتكلم بلسان العرب.

أما البلاغة فإنها علم جمالي، يبحث فيما وراء الصحة من خصوصيات الفن الأدبي، أي إن البلاغة «علم الأدب» تختص به، وتبحث عن أسباب الإجادة والإبداع في الأعمال الأدبية التي يتفاضل فيها الأدباء.

ويجب ألا يعزب عن البال أن «علم البلاغة» كان أول العلوم التي استقلت عن مجموعة العلوم الأدبية. وقد تحددت مباحث هذا العلم، وأصبح له كيانه منذ نشأة هذه العلوم، وظلت ترفده العقول الواعية

ليسهل الرجوع إليه والإفادة منه على طلاب المعرفة، وفهم ما يدل عليه «العرف الخاص» لكل ضرب من تلك الضروب الثقافية العلمية منه والفنية على السواء.

وذلك بالإضافة إلى حشد كبير من الموسوعات ودوائر المعرفة التي اتسع فيها نطاق البحث ليشمل ضروبًا شتى من المعارف والثقافات التي تعم بها الفائدة لجماعات الباحثين في الثقافات الإنسانية على اختلاف تخصصاتها.

وبقيت البلاغة العربية من غير معجم يضم شمل فنونها، ويجمع شتات مصطلحاتها التي كانت دلالات وضعية عند أصحاب اللغة الأولين، ثم جنح بها العرف البلاغي إلي تحديد المفهوم الخاص، لتصبح مصطلحات بلاغية محدودة المعنى، واضحة المفهوم.

وقد كان علم البلاغة في طليعة علوم الأدب، وكان في الوقت نفسه من أغزر علوم العربية وأغناها بالدلالات الخاصة والمصطلحات الفنية، لأنه العلم الجمالي الذي يبحث في صناعة الأدب الذي يمتاز بالعبارة الفنية الأنيقة، ويحصي مظاهر القوة والوضوح والجمال في التعبير الفني.

وتلك هي الأسباب التي دفعتني إلى التفكير في تأليف هذا المعجم منذ أحسست بفراغ مكانه في المكتبة العربية، وبالحاجة الملحة إلى ملء هذا الفراغ منذ جنح بي التخصص العلمي إلى البحث البلاغي والنقد الأدبي منذ عهد بعيد.

ومن نافلة القول إن مؤلفي المعاجم في كل لون من ألوان المعرفة لم يكونوا هم الذين ابتدعوا تلك الدلالات التي اشتملت عليها معجماتهم، ولكن الفضل في ذلك كله كان لأصحاب تلك العلوم أو الفنون الذين فحصوا مسائلها، ودرسوها مفصلة في أبوابها وفصولها بعد أن حصروا مباحثها، وحدّدوا موضوعاتها، وأصبحت ذات ضوابط ورسوم ومصطلحات يعرفها الخبراء بها.

ولست أحب أن يفهم من هذا الكلام أن أصحاب المعاجم أو دوائر المعارف كانوا بمعزل عن تلك الثقافات التي ألّفوا معجماتها، بل إن العكس هو الصحيح، إذ إنه لا يجرؤ على التصدّي لاستقراء تلك المصطلحات والكشف عن دلالاتها الخاصة في لون من ألوان المعرفة إلا من كان حاذقًا فيه، عالمًا بمباحثه، عارفًا بأصوله وفروعه، خبيرًا بمظانّه وأصول البحث فيه، قادرًا على الموازنة بين الآراء، ليمخض زبدتها، ويستخرج الصالح النافع منها.

وقد استعنت في تأليف (معجم البلاغة العربية) بجميع مااستطعت الوقوف عليه من أصول البلاغة ومظانها المختلفة منذ بدء التفكير في البلاغة والتدوين فيها، ثم تتبعت الآثار المختلفة التي سجل فيها الأسلاف خلاصة الجهد الذي بذلوه في إثراء هذا الفن. وما أكثر ما خلّفوا من ثمرات ذلك الجهد الذي لا يقدره إلا أهل الخبرة والمعرفة.

واستطعت بعون الله أن أجمع المادة العلمية لهذا الأثر، وأن أنسقها على نحو ييسر الرجوع إليها، والإفادة منها.

ومضت سنوات وأنا أهمّ بنشر هذا الأثر، ثم لا ألبث حتى يغلب التردد، فأحجم عن هذا النشر.

وقد يكون من دواعي العجب أن يكون الباعث على الإقدام على نشر هذا المعجم وثيق الصلة بالدافع الذي كان يدعو إلى التردّد والإحجام.

فقد كان عامل الإقدام وعامل الإحجام ينبعث كلاهما عن إحساس عميق بضرورة هذا العمل الذي كنت أعدّه دينًا في عنقي وأعناق غيري من المتخصصين في مجال البحث البلاغي على قلتهم في هذا الزمان. وهو دين واجب الوفاء لأمتنا وتفكيرها وتاريخها، وتراثها الجديربالبقاء.

كما كان كلاهما ينبعث عن رغبة صادقة في أن يكون هذا العمل الخالص لوجه الله والعلم، ووجه لغتنا العربية وتراثها في المعرفة عملاً ناضجًا وافيًا بالمقصود..

وذلك ما كنت أشفق منه على نفسي كل الإشفاق لخطورة ما أنا مقدم عليه بعد أن أعددت له عدته من الجدّ الموصول والأناة في تخطي عقباته واجتيازها في سبيل الغاية التي نشدت بلوغها.

ولعلّ من أعظم الآمال التي كنت أمني النفس بها أن يرى هذا العمل النور وأنا مازلت في قيد الحياة، حتى يكون ذلك سببًا من أسباب الكمال الذي نشدته له، إذا ما أتيح للعارفين أن يقرأوه، وأن يقفوا على ثغرات نقص فيه، يستطيعون أن ينبهوا المؤلف إليها، ليتداركها ويقوّم منآدها إذا وقعت عيونهم على نقص في الاستقراء، أو خَللَ في التأليف. وذلك مالا هذا المعجم أو أي أثر من آثاري المطبوعة بمنأى عن الوقوع فيه، فأنا واحد من جملة البشر الذين استولى عليهم النقص، وإن كنت لم أقصر في طلب الكمال!

ذلك أني كنت أشعر دائمًا بأن ما أقدم عليه من إخراج كتاب جامع لمصطلحات البلاغة العربية وفنونها وأدواتها ليس بالعمل اليسير، وأن جهد واحد من المختصين لا يستطيع أن يوفيه حقه كاملاً إلا بعناية من الله وعون منه، لفداحة العبء وعظم المئونة.

وقد يكون من المناسب في هذا المقام الذي أتحدث فيه عن تجربتي في صنعة «معجم البلاغة العربية» أنني في سنة ١٩٦٤م قدَّمت أصول هذا المعجم كاملة إلى صديق عربي حسبته مختصاً في البلاغة، ليعيد النظر فيما صنعت، ويضيف إليه ما يرى أنه غاب عني، وشرحت له شفوياً وفي رسائل متبادلة بيننا خطة التأليف ومنهجه، وأعطيته الحق في أن يضع اسمه بجانب اسمي، وأن يشرف على طبعه ونشره، فقد يكون عنده من صحة البدن ومن نشاط الشباب مالا أجده.

وقد ظلت أصول هذا المعجم بين يديه خمس سنوات كاملة، ثم كان أن ذهبت إلى بلده العربي الشقيق سنة ١٩٦٩م مشاركًا في أحد المؤتمرات العربية التي أقيمت فيه.

وكانت المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، فقد أعاد إليّ تلك الأصول كما تسلّمها قائلاً إن ما فعلته فيه الكفاية والكمال المنشودان، وإنه لم يستطع في تلك السنوات الخمس أن يعدل في الكتاب شيئًا، أويضيف إليه فنّاً، فشكرته، وحملت أصول كتابي معي إلى القاهرة!

لم يبق أمامي بعد ذلك إلا أمران أحلاهما مرّ، فإما أن أنهض بهذا العبء الذي أشفق منه، وأحتمل ثقله وحدي، وإما أن أدعه قوتًا للأرضة والجرذ، حتى يلفظ آخر أنفاسه، ويموت وهو في مهده إلى الأبد.

ولم أرد أن أقدم هذا المعجم إلى دار النشر التي تقوم بطبع كتبي، وتحتمل عني تكاليف الطباعة والإعلان، إشفاقًا على صاحبها من التكاليف الباهظة في إخراج المعجم بالشكل الذي أريد، ومن الخسارة المحققة التي يتعرض لها، فكم عدد الذين يعنيهم أن يقتنوا نسخًا من هذا المعجم المتخصص في لون واحد من ألوان المعرفة التي لا حصر لها، وهو على كل حال تاجر يجيد حساب الربح والخسارة.

وأخيرًا تدركني عناية الله، فترحب جامعة طرابلس بالجمهورية العربية الليبية بهذا المعجم، وتتعاقد معي سنة ١٩٧٤م على طبعه ونشره لقاء مكافأة محدودة نقدتني نصفها، وأجِّلت الباقي حتى تمام الطبع، وقد تم الطبع ونفدت النسخ المطبوعة منذ سنين، ولا يزال النصف الباقي من المكافأة مع النسخ المتفق عليها للهدايا في ذمتها إلى الآن.

ثم أصدرت مكتبة دار العلوم بالرياض الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م، وتعاونت دار الرفاعي بالرياض ودار المنارة في جدة على إصدار الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م. وكانت جملة المطبوع في تلك النشرات الثلاث خمسة عشر ألف نسخة.

وكان عدد الفنون والمصطلحات التي تضمنتها الطبعة الأولى ٩٠٣ وصلت في الطبعة الثانية إلى ٩٢٦، وبلغت في الطبعة الثالثة ٩٤٥ من فنون البلاغة ومصطلحاتها. وتصل في الطبعة الرابعة التي تقدم قريبًا بإذن الله إلى المطبعة إلى ٩٧٠.

وقد وفق الله إلى هذه الزيادات بإدامة النظر، ومواصلة البحث والتنقيب في أصول البلاغة ومصادرها.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وله الحمد في الأولى والآخرة، وإليه المرجع والمآب..

التصانيف المخطوطة لأسرة ابن عمر الضمدي

أحمد بن محمد أحمد الميشني

كلية اللغة العربية – فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – أبها

مقدمة

شهدت أرجاء جنوب الجزيرة العربية حركة علمية بارزة نتج عنها كثرة الحلقات العلمية وانتشار التأليف في جميع العلوم والمعارف.

وفي الواقع أن هذه الحركة العلمية قامت على أكتاف أسر معروفة في جنوب الجزيرة العربية، ولا أريد هنا أن أعدد هذه الأسر، وإنما أكتفي بالحديث عن أسرة من تلك الأسر، وينصب الحديث هنا عن مؤلفاتهم المخطوطة ومضمونها وأماكن توزيعها.

أسرة آل ابن عمر الضمدي

أسرة علمية شهيدة توارث أبناؤها خدمة التعليم منذ أوائل النصف الأول من القرن العاشر الهجري حتى عصرنا الحاضر، وبرز منهم فطاحل العلماء ممن أسهموا في إنارة الفكر البشري بمصنفاتهم في مختلف الفنون.

وتنسب هذه الأسرة إلى «الحكم بن سعد العشيرة» من قبيلة مذحج العربية، فهم ينتسبون إلى محمد بن علي بن عمر بن إبراهيم بن عثمان بن محمد بن أبي بكر ابن علي بن محمد بن عبدالله بن عبدالواحد بن محمد ابن علي بن سليمان بن عوف بن محمد بن ميشن بن سليمان بن شراحيل بن كعب بن عبس بن المحجم بن عوف بن مضة بن سفيان بن سلهم بن الحكم بن سعد العشيرة ابن مذحج بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب ابن يعرب بن كهلان بن سبأ(١).

وقد أشاد بهذه الأسرة عدد من العلماء والمؤرخين منهم «عبدالرحمن بن أحمد البهكلي» في كتابه «نفح العود» إذ سماهم بـ «العمريين حملة العلم»(٢). وقد قال عنهم العقيلي: «أسرة معروفة بالفضل والأدب وأنيط بغير واحد من أبنائها وظيفة القضاء الشرعي من القرن العاشر الهجري إلى عصرنا الحاضر»(٣)، وقد ترجم المؤرخ «زبارة الحسني» في كتابه «نيل الوطر في تراجم رجال القرن الثالث عشر» المطبوع لعدد من علماء هذه الأسرة، وجاء بعده خير الدين الزركلي فترجم في كتابه «الأعلام» لعدد وافر من علمائها وكان «محمد بن علي الشوكاني» المتوفى عام ١٢٥٠هـ في كتابه «البدر الطالع» قد ترجم لعدد من علمائها أيضًا، وكان قد سبقهم «عبدالله بن علي النعمان» المتوفى عام ١٠٧٨هـ فترجم في كتابه «العقيق اليماني» المخطوط لبعض علمائها وأتى بعده «الحسن بن أحمد الضمدي» الشهير بعاكش المتوفى سنة ١٢٩٠هـ فترجم في «الديباج الخسرواني» و«حدائق الزهر» و«عقود الدرر» لبعض علماء أسرته، هذا بالإضافة إلى تراجم ابن أبي الرجال الصنعاني في كتابه المخطوط «مطلع البدور ومجمع البحور»، وكذلك فعل «علي بن محمد النعمان» في كتابه المفقود «شرح الصادح والباغم في تاريخ ضمد».

ومن اشهر اعلام هذه الأسرة :

١ - محمد بن علي بن عمر الضمدي (٨٨٣ - ٩٩٠هـ).

٢ - أحمد بن عبدالله بن عبدالعزيز الضمدي (١١٧٤ - ١٢٢٢هـ).

٣ - أحمد بن علي بن أحمد الضمدي (١٢٠١ - ١٢٧٤هـ).

٤ - الحسن بن أحمد بن عبدالله الضمدي (١٢٢٢ - ١٢٩٠هـ).

٥ - يحيى بن أحمد الضمدي (١٢١٨ - ١٢٤٣هـ).

وغيرهم من علماء هذه الأسرة

ويدرك الناظر في تراث أسرة آل ابن عمر الضمدي مدى الإهمال الذي أصابه، فقد ضاع الكثير من مؤلفات علماء هذه الأسرة وما وجد منها لا يمثل في نظري إلا الربع منه، وهو يدور غالبًا في العلوم الشرعية واللغوية وهي.

١ - العلوم الشرعية

أولاً - التفسير.

ومن ألف فيه من علماء هذه الأسرة «الحسن بن أحمد الضمدي» الشهير بعاكش المتوفى سنة ١٢٩٠هـ، فله تفسير ضخم يعرف بـ «فتح المنان بتفسير القرآن» ويقع في مجلدين حاول فيه الاختصار بذكر القول الراجح، وقد يذكر فيه الرأيين والثلاثة. كما يشير فيه إلى القراءات والإعراب، مكث في جمعه مدة من الزمن تقرب السنوات الأربع، فقد شرع فيه عام ١٢٧٢هـ وانتهى منه ١٢٧٦هـ، ومن أجمل ما في الكتاب عدم اعتماده على آراء الإسرائيليين كغيره من المفسرين؛ بل يناقشها، ويرد عليها بأسلوبه كما يظهر في كثير من مواضع الكتاب.

والمخطوط يوجد منه نسخة نادرة أصلية خطية لدى أحد أحفاد المؤلف، وهو الشيخ يحيى بن أحمد عاكش في مكتبته الخاصة بضمد ومنها نسخة مصورة في مكتبة الباحث.

ثانيًا - التوحيد.

وممن ألف فيه «الحسن بن أحمد عاكش الضمدي» المتوفى سنة ١٢٩٠هـ، فله كتاب يعرف بـ «جواهر القلائد في معرفة العقائد» (٤) بحثت عنه فلم أعثر له على أثر.

ثالثًا - الحديث وعلومه.

وممن ألف فيه من علماء هذه الأسرة، الفقيه «أحمد بن عبدالله الضمدي» المتوفى سنة ١٢٢٢هـ، فله كتاب يسمى «مشارق الأنوار المنتقي من صحيح الآثار» شرح فيه كتاب الأزهار للإمام أحمد بن يحيى المرتضى، والكتاب يقع في مجلدين في ٤٠٠ ورقة، وقد بسط فيه لمسائل الفقه، ويورد اختلاف العلماء ويرجح القول الراجح مما يدل على تمكن صاحبه من العلم. منه نسخة خطية في جامع صنعاء الغربي القديم تحت رقم ٧٢، مصور على ميكروفلم في مكتبة الباحث، وممن ألف فيه أيضًا الفقيه «أحمد بن حسن الضمدي» فله كتاب «منحة الصمد في الميسور من حديث ضمد» تعرض فيه لقول الرسول ﷺ «اتق الله ولا يضيرك أن تكون بجانب ضمد» ويقع فيما يقارب عشر ورقات، منه نسخة محفوظة في مكتبة الشيخ يحيى بن أحمد عاكش، ونسخ أخرى مصورة في مكتبات خاصة.

رابعًا - الفقه.

ونجد فيه عدة رسائل لعلماء هذه الأسرة ومنهم الفقيه «أحمد بن عبدالله الضمدي»، المتوفى سنة ١٢٢٢هـ، ومن رسائله في الفقه «رسالة في حكم يوم الشك» (٥) وهي مفقودة و «رسالة في حكم التنباك» (٦) جزم فيه بالتحريم، وهي مفقودة و «رسالة في حكم قاتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» (٧) مفقودة أيضًا، كما أنه له رسالة في حكم اختصار كتابة صلى الله عليه وسلم بعثها إلى شيخه الشوكاني وأجاب عليه برسالة مطولة سماها «عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد» (٨) وفي القرن الثالث عشر الهجري نجد لـ «الحسن بن أحمد عاكش» كتاب «نزهة الأبصار من السيل الجرار» (٩)،

استوعب ما في السيل الجرار «للشوكاني» من المسائل الفقهية وحذف ما أثار نقد الناس وهو مفقود، كما أن له «إرشاد الراغبين في الفقه» (١٠) وهو مفقود، وله «شرح منظومته متن الدرر البهية» (١١) مفقود أيضًا، وله رسالة في وجوب قراءة الفاتحة على المأموم (١٢).

اللغة العربية وعلومها

أولاً - النحو .

وممن ألف فيه من علماء هذه الأسرة، الفقيه «أحمد بن عبدالله الضمدي» المتوفى سنة ١٢٢٢هـ، فله شرح على «ملحمة الإعراب» (١٣) للحريري في مكتبة الحسن الفائمي نسخة نادرة منه.

ثانيًا - اللغة .

ونجد فيها رسالة للفقيه أحمد بن عبدالله الضمدي في علم الاشتقاق وهي مفقودة.

ثالثاً - البلاغة .

وممن ألف فيها الفقيه عاكش الضمدي، فله «روض الاذهان شرح نظم المدخل في علم المعاني والبيان» (١٤) وقد حظي هذا الكتاب بالقبول لدى علماء تهامة وقرظة جماعة من أدبائها وهو مفقود.

كما نجد له «الكواكب السيارة المشرقة على الأقوال المختارة في نظم معاني الاستعارة» (١٥) وهو مفقود.

رابعًا - الأدب .

ونجد فيه مجموع شعري لابن عمر الضمدي المتوفى سنة ٩٩٠هـ، يضم بعض إنتاجه الشعري؛ منه نسخة خطية في مكتبة الشيخ علي أبو زيد الحازمي بضمد (١٦) مصور في مكتبة الباحث، وله القصيدة اللامية في الاستسقاء وهي مطبوعة (١٧). كما نجد للفقيه «أحمد بن عبدالله الضمدي» المتوفى سنة ١٢٢٢هـ مجموعة رسائل نثرية متبادلة مع أمراء الدولة السعودية الأولى، بعض هذه الرسائل في مكتبة أبي زيد الحازمي بضمد لايزال مخطوطًا وبعضها مطبوعًا (١٨). كما نجد لـ «الحسن بن أحمد بن عبدالله الضمدي» الشهير بعاكش المتوفى سنة ١٢٩٠هـ، شرحًا على «لامية العرب» للشنفرى، وهذا الشرح مفقود، وعلى ما يبدو أن هذا الشرح قد حفل بجملة من الأخطاء مما دعا اللغوي «محمد محمود التركزي الشنقيطي» المتوفى سنة ١٣٢٠هـ أن يؤلف كتابه المخطوط «إحقاق الحق وتبريء العرب مما أحدث عاكش في لغتهم ولامية العرب» تحامل فيه على عاكش كثيرًا، غفر الله لهما فالعالم يخطئ ويصيب، وعادة العلماء توضيح الخطأ لا السب والشتم والعلم عند الله (١٩).

ولعاكش أيضًا «ديوان شعر» منه نسخة خطية في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، ضمن مجموعة الشيخ العقيلي المهداة إليها، وله مجموعة رسائل نثرية متبادلة مع علماء عصره، وله مقامة تعرف بـ «فريدة العرائس وبهجة المجالس» وقد ذيّلها «عبدالرحمن بن أحمد البهكلي» بذيل سماه «درر النفائس تقريض بهجة المجالس» ومقامة عاكش وذيل البهكلي في المكتبة الغربية بجامع صنعاء الغربي القديم تحت رقم ٣٥ أدب/ مجاميع (٢٠).

التاريخ

وممن ألف في علم التاريخ وبرز فيه من علماء الأسرة المؤرخ «الحسن بن أحمد بن عبدالله الضمدي» (٢١) المشهور بعاكش (١٢٢١ - ١٢٩٠هـ) فهو يعد مؤرخ المخلاف السليماني في القرن الثالث عشر الهجري، وله عدة كتب في باب التاريخ منها المخطوط ومنها المطبوع، فمن كتب هذا الباب:

١ - «الديباج الخسرواني في ذكر ملوك المخلاف السليماني» تعرض فيه لتاريخ المخلاف في القرن الثالث عشر من سنة ١٢١٧هـ إلى سنة ١٢٧٨هـ، وتعرض فيه أيضًا لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - يرحمه الله - وانتشارها في جنوب الجزيرة العربية وهو يقع في ٣٥٠

ورقة، وقد نال عليه الباحث السعودي إسماعيل بن محمد البشري درجة الدكتوراه من جامعة درم البريطانية لتحقيقه الكتاب، ولم يطبع.

٢ - «الذهب المسبوك في سير سيد الملوك» ألفه في سيرة الشريف «الحسين بن علي بن حيدر الحسني» منه نسخة في مكتبة جامعة الملك سعود ضمن مجموعة العقيلي المهداة إليها.

٣- «عقود الدرر في تراجم رجال القرن الثالث عشر» منه نسخة خطية في مكتبة جامعة الملك سعود بالإضافة إلى نسخة مكتبة جامع صنعاء الغربي ونسخ أخرى مصورة في مكتبات خاصة من ضمنها مكتبة الباحث.

٤- «حدائق الزهر في ذكر الأشياخ وأعيان الدهر» ترجم فيه لشيوخه وزملائه حققه وطبعه إسماعيل البشري.

٥- «ذيل نفح العود» . . . وهو مطبوع (٢٢).

٦- «الدر الثمين في ذكر مناقب أمير المسلمين» ألفه في سيرة الأمير «محمد بن عائض» أمير بلاد عسير في عصره، وقد نشره الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب، ثم قام الشيخ عبدالله بن علي بن حميد، بنشره وطبعه في سوريا، وهو بحاجة إلى تحقيق علمي جديد موسع.

٧- «قمع المتجزّي على أولاد الشيخ بكري» تحدث فيه عن عدة فوائد في علم الأنساب وضمنه نسب أسرة آل الحفظي المعروفة «برجال ألمع» ويقع في ١٥ ورقة منه نسخة أصلية في مكتبة الشيخ على بن الحسن الحفظي بمدينة أبها، مصورة في مكتبة الباحث.

وبعد؛ فهذه جولة سريعة على تراث أسرة علمية من أسر تهامة، أحببنا التعريف بها وبتراثها، رغبة في نشر العلم.

الهوامش

١- ثبت بنسب آل ابن عمر الضمدي - مخطوط في مكتبة الشيخ يحيى بن أحمد عاكش بضمد، مصور في مكتبة الباحث، ولمن أراد التوسع عن هذه الأسرة وبلدة ضمد ينظر في كتاب «نبذة تاريخية عن التعليم في تهامة وعسير» لحجاب الحازمي وكتاب «الحياة الفكرية والعلمية بجنوبي الجزيرة العربية» لعبدالله أبي داهش.

٢- «نفح العود» للبهكلي، تحقيق الشيخ العقيلي، طبع دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ص١١١.

٣- «أضواء على الأدب والأدباء بمنطقة جازان» للعقيلي ص٤٠.

٤- الحياة الفكرية ص ١٠٩.

٥- مصادر الفكر العربي والإسلامي - للحبشي ص ١٣٧.

٦- المصدر السابق ص ١٣٧.

٧- المصدر السابق ص ١٣٧.

٨- حققها ونشرها هلال إبراهيم هلال ضمن كتابه «أمناء الشريعة».

٩- الحياة الفكرية ص ١٠٦.

١٠- مقدمة كتاب «رسالة في الفاتحة» ص ٧.

١١ - المصدر السابق.

١٢- حققها ونشرها علي أبو زيد الحازمي.

١٣- مصادر الفكر ص ٣٩٠.

١٤- الحياة الفكرية، ص ١٠٧.

١٥- مقدمة «رسالة في الفاتحة» ص ٨ تحقيق أبي زيد الحازمي.

١٦- حققه ويطبعه حاليًا أبو زيد الحازمي.

١٧- حققها ونشرها عبدالله أبو داهش.

١٨- نشر بعضها عبدالله أبو داهش في مجلة العربي.

١٩- في مكتبة الباحث نسخة مخطوطة من هذا الكتاب.

٢٠- فهارس مخطوطات جامع الأوقاف بصنعاء إعداد الرقيمي ٣/ ٧٥٠.

٢١- ينظر في ترجمة (نيل الوطر) الزبارة ١/ ٧٦، أو «الأعلام» ٢/ ١٥٥.

٢٢- طبع كذيل نفح العود، تحقيق العقيلي، نشر دارة الملك عبدالعزيز.

إثبات أن تاريخ الإمام البخاري المطبوع

باسم «التاريخ الصغير» هو «التاريخ الأوسط»

محمد أولاد عتو

مفتش بالتعليم الثانوي - مراكش - المغرب

شاع بين الباحثين المعاصرين أن تاريخ الإمام البخاري «التاريخ الأوسط» مفقود، واستحكمت هذه الشائعة وقرت في الأذهان منذ زمن طويل، وبالمقابل ركن الناس إلى أن تاريخ البخاري المطبوع باسم: «التاريخ الصغير» هو بالفعل التاريخ الصغير، فطبع طبعات عديدة اعتمدها الباحثون، ونقلوا عنها باطمئنان، وها هي بحسب ما وقفت عليه:

* طبع على الحجر في مدينة اللّه آباد ١٣٢٤هـ. بتحقيق محمد الجعفري.
* وطبع في مدينة أحمد آباد ١٣٢٥هـ.
* ونشر أيضًا بتعليق شمس الحق؛ نشرة بدون تاريخ.
* وطبع بالمكتبة الأثرية سانكلته هل، باكستان بدون تاريخ.
* وأخيرًا نشر بتعليق محمود إبراهيم زايد ثلاث نشرات:

- صدرت الأولى عن دار الوعي بحلب بدون تاريخ.
- وصدرت الثانية بدار التراث بمصر: ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م).
- وصدرت الثالثة والأخيرة عن دار المعرفة - بيروت، وألحق بها فهرس للأحاديث والأعلام، أعدّه يوسف المرعشلي، سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

ولا نعلم على الوجه الدقيق أول طبعة صدرت للكتاب؛ لأن عددًا من طبعاته بدون تاريخ، والظاهر أن أول طابع للكتاب لم يتحقق من النسخة الخطية التي اعتمدها فوقع له وهَمٌ لسبب من الأسباب الكثيرة المعلومة للمشتغلين بالنشر الجاد للتراث. وفي كل مرة كان يجدد طبعه كان كل طابع يكتفي بالاعتماد على المطبوعة السابقة دون الرجوع لنسخة خطية موثقة، وهكذا استمر هذا الوهَم وتناقله الطابعون للكتاب والدارسون له على السواء.

وهذا الذي ألمعت إليه جعل المعتني بآخر طبعة من التاريخ الصغير يقع في سهو عجيب، إذ أفاد في (ص٢٢) من مقدمته أن الكتاب من رواية **عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأشقر**، ثم لم يتنبه إلى أن النسخة التي بين يديه هي من رواية **أبي محمد زنجويه ابن محمد النيسابوري**. كما هو واضح في سندها المثبت في (ص٢٧)، وهذا الأخير هو أحد راويين للتاريخ الأوسط كما سنرى.

عود على بدء:

معلوم أن للبخاري ثلاثة تواريخ: «التاريخ الكبير» وقد طبع بحيدر آباد الهند في أربعة أجزاء موزعة على ثمانية مجلدات ما بين سنتي ١٣٦٠ - ١٣٦٤هـ ورغم الجهد الكبير الذي بذله الواقفون على طبعه فما زال في جزئه الثالث بعض السقم (١). ومهما كان؛ فإن الكتاب يحتاج إلى تحقيق جديد وخدمة شاملة لفهرسة جميع مادته الضخمة وتيسير الاستفادة منه للباحثين.

وأعجب معي لهذا: التاريخ الكبير على ضخامته بذل الواقفون عليه أقصى ما في قدرتهم لجمع نسخه

المتوافرة، والتاريخان الأوسط والصغير على صغر حجم مادتيهما شحت المعلومات عن نسخهما التي يمكن الاعتماد عليها، وفي غياب ذلك الآن لا نملك إلا التأمل فيما بين أيدينا من نقول :

أولاً : من حيث الرواية ؛ (أو ما يعرف عند المحققين بالدراسة الخارجية) (١) .

«التاريخ الأوسط» يرويه عن الإمام البخاري :

* أبو محمد عبدالله بن أحمد بن عبدالسلام الخفاف (٣) النيسابوري نزيل مصر (المتوفى سنة ٢٩٤هـ) .

* أبو محمد زنجويه بن محمد بن الحسن بن عمر الزاهد اللباد النيسابوري، المتوفى سنة ٣١٨هـ (٤) .

ومن هذين الطريقين فقط ذكره ابن خير في الفهرست : ٢٠٥، والروداني في الصلة : ١٥٥، والذهبي في السير : ٥/ ٢٢٢ - ٢٢٣، وابن حجر في هدي الساري : ٥١٦، وعن الأخير نقل حاجي خليفة في الكشف : ١/ ٢٨٧ .

والنسخة التي وصلتنا وطبع عنها الكتاب خطأ باسم «التاريخ الصغير» هي من رواية زنجويه، وهذا إسنادها : «أخبرنا أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبدالله الهروي الحافظ، قال : أخبرنا أبو علي زاهر ابن أحمد الفقيه السرخسي بها قراءة عليه سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، قال : أخبرنا أبو محمد زنجويه بن محمد النيسابوري، قال : حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري قال : » (٥) .

أما التاريخ الصغير : فيرويه عن الإمام البخاري :

* راو واحد فقط هو عبدالله بن عبدالرحمن الأشقر القاضي (٦)، ومن طريقه فقط ذكره الروداني في الصلة : (١٥٥)، وابن حجر في الهدي (٥١٦) ، والذهبي في السير (٢٠/ ٣١٢) .

والنتيجة التي تثبتها الرواية وحدها أن هذا المطبوع بيننا هو «التاريخ الأوسط» لزامًا، أما التاريخ الصغير فيبقى أمره ومصير نسخه غامضًا لحد الآن . إذ يحتاج الأمر إلى مراجعة النسخة التي ذكرها بروكلمان (٣/ ١٧٨)، وما أضافه سزكين (١/ ٣٤٧)، فلعلنا نعثر على نسخة مسندة أو مسموعة تبعث على الاطمئنان .

ثانيًا : من حيث انطباق موضوع المسمى على الاسم ؛ (أو ما يعرف بالدراسة الداخلية) (٢) .

١ - بالنظر لمادة الكتاب وعدد تراجمه فهو ليس بصغير، ثم إن الروداني يقول عن التاريخ الصغير : في الصلة (ص١٥٥) : «وهذا التاريخ خاص بالصحابة وهو أول مصنف في ذلك» ، في حين أن الصفحة الأولى من المطبوع جاء فيها بعد سند النسخة السابق وصف البخاري لمضمون الكتاب بقوله : «كتاب مختصر من تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار وطبقات التابعين لهم بإحسان ومن بعدهم ووفاتهم وبعض نسبهم وكناهم ومن يرغب في حديثه . . . » (٥) . فواضح إذن أن التاريخ الصغير مقصور على الصحابة، وهذا الذي بين أيدينا قد تعداهم كما ترى . ثم إن ابن حجر قد أكثر من النقل من التاريخ الأوسط ناصًا عليه في كتابه تهذيب التهذيب (٧) . إذ يقول عن الراوي المترجم (ذكره البخاري في فصل من مات بين كذا وكذا من السنين)، وكذلك هو حال المطبوع الذي نحن بصدده، وهذا وحده لعمري كاف لمن تأمل وعرف ثم أنصف .

٢ - نقول وردت في بعض المصادر نقلت حرفيًا من «التاريخ الأوسط» بالنص عليه صراحة، وهي مثبتة بنصها تمامًا في المطبوع بين أيدينا باسم «التاريخ الصغير» ، منها :

النص الأول : قال الذهبي في السير (٥/ ٢٢٢ - ٢٢٣) : «واختلفوا في وفاة ثابت، فعن جعفر بن

سليمان مما رواه البخاري في «تاريخه الأوسط» عن محمد بن محبوب عن شيخ له، عنه قال: مات ثابت ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع سنة ثلاث وعشرين ومئة».

وبالرجوع للمطبوع باسم «التاريخ الصغير» (١/ ٣٥٣)، نجد البخاري يقول: «حدثنا محمد بن محبوب، قال: حدثنا أبو سلم، رجل من أصحاب الحديث لا أحفظ اسمه، عن جعفر بن سليمان، قال: مات ثابت، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، قال ابن محبوب: وأرى قال أبو عمران الجوني سنة ثلاث وعشرين ومائة».

النص الثاني: قال الذهبي في الميزان في ترجمة قيس بن الربيع (٣/ ٣٩٦): «وحكى البخاري في "تاريخه الأوسط" عن أبي داود، قال: إنما أتي قيس من ابنه؛ كان يأخذ حديث الناس فيدخلها في فرج كتاب قيس، ولا يعرف الشيخ ذلك».

وبالرجوع للمطبوع باسم «التاريخ الصغير» (٢/ ١٥٨) نجد البخاري يقول: «حدثنا علي، قال: وكان وكيع يضعف قيسًا، قال أبو داود أيضًا: أتي قيس من قبل ابنه، كان ابنه يأخذ حديث الناس فيدخلها في فرج كتاب قيس، ولا يعرف الشيخ ذلك».

النص الثالث: قال ابن حجر في الإصابة (١/ ١٧٧): «قال البخاري في "الأوسط": روى يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، قال: استسقى النبي ﷺ، وقال بعضهم: استسقى بنا، قال: ولا يصح، لأن أمه أم كلثوم زوجها أخوها الوليد أيام الفتح».

وبالرجوع للمطبوع باسم «التاريخ الصغير» (١/ ٢٣٨) نجد البخاري يقول: «وعن يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني إبراهيم بن عبدالرحمن، استسقى بهم النبي ﷺ، رأى بعضهم في كتاب: أن النبي ﷺ استسقى بهم، ولا أراه يصح لأن أم كلثوم زوجها الوليد يوم الفتح».

النص الرابع: قال ابن حجر في الإصابة (١/ ٢٠٤)، في ترجمة ثعلبة بن الحكم الكناني الليثي: «وذكره (البخاري) في "الأوسط" فيمن مات بين السبعين إلى الثمانين».

وبالفعل بالرجوع للمطبوع باسم «التاريخ الصغير» نجد البخاري يذكره في «ذكر من مات بين السبعين إلى الثمانين» الذي يبتدئ من (١/ ١٨١) وينتهي في (١/ ٢٠٨)، ذكره أربع مرات في (١/ ٢٠٠).

ولاحظ معي هنا قول ابن حجر إن «الأوسط» مرتب على طريقة «ذكر من مات بين كذا وكذا»[٨] وكذلك هو الحال في المطبوع بين أيدينا باسم «الصغير»، كما سبق الإلماع إلى ذلك.

النص الخامس: قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٦/ ١٩٥)، في ترجمة عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود الهذلي الكوفي: «قلت: روى البخاري في "التاريخ الكبير" وفي "الأوسط" من طريق ابن خثيم عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه قال: إني مع أبي، فذكر الحديث في تأخير الصلاة، زاد في "الأوسط" شعبة يقولون لم يسمع من أبيه، وحديث ابن خثيم أولى عندي».

وبالرجوع للمطبوع باسم «التاريخ الصغير» (١/ ٩٩) نجد البخاري يقول: «حدثني مقدم بن محمد، حدثني عمي القاسم بن يحيى، ثنا أبو عثمان، عبدالله بن عثمان بن خثيم المكي عن القاسم بن عبدالرحمن، عن أبيه، أخر الوليد بن عقبة الصلاة بالكوفة، فانكفأ ابن مسعود إلى مجلسه، وأنا مع أبي، قال شعبة: لم يسمع عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود من أبيه، وحديث ابن خثيم أولى عندي».

وانظر نصين آخرين في تهذيب التهذيب : (٢/ ٣٣)، و(٢/ ٢٥١) وردا بتمامهما في المطبوع باسم «الصغير» : (١/ ٣١٠)، (٢/ ٣٥٤)، لم أثبتهما هنا اكتفاء بنص واحد من كل مصدر .

* فهذه النقول التي سقتها كما هي كافية في أن التاريخ المطبوع باسم «الصغير» هو «الأوسط» ، إلا أن النسخة من التاريخ الأوسط التي طبع عنها هذا الذي بين أيدينا باسم «الصغير» هي نسخة ناقصة ، إذ وقفت على نقل مهم من «الأوسط» لم أجده في هذا المطبوع باسم «الصغير» ، وهو :

- قال أبو الحسن ابن القطان الفاسي (ت ٦٢٨هـ) في (بيان الوهم والإيهام ١/ ١٦٣/ أ) قال البخاري في كتابه الأوسط : «كل من قلت فيه : منكر الحديث، فلا تحل الرواية عنه» ا . هـ .

وهذه القولة ذكرها الذهبي في الميزان (١/ ٦) في ترجمة أبان بن جبلة الكوفي فقال : «ونقل ابن القطان أن البخاري قال : كل من قلت فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه» . وذكرها أيضًا تاج الدين عبدالوهاب السبكي في الطبقات (٢/ ٢٢٤) ، ولم يذكر أين قالها البخاري . وذكرها أيضًا ابن حجر في اللسان (١/ ٢٠) في الترجمة نفسها مما يدل أنه نقلها عن الذهبي، ولم يصرح بذلك .

وهذا يؤكد أن هذه الفائدة العزيزة مذكورة في «التاريخ الأوسط» غير أني استعرضت المطبوع باسم «الصغير»، فلم أجدها، فظهر أن النسخة التي طبع عليها الكتاب قد تكون ناقصة أو سقطت منها بعض الأوراق .

٣ - نقول نقلت من «التاريخ الصغير» بالنص عليه، وهي غير موجودة في المطبوع الذي بين أيدينا لأنه هو «الأوسط» وليس «بالصغير» (وهذا دليل عكسي) منها :

- قال ابن حجر في تهذيب التهذيب :

النص الأول : في ترجمة إسماعيل بن بشر بن منصور السليمي (١/ ٢٥٧) : «وقال البخاري في "التاريخ الصغير" : حدثني إسماعيل بن بشر بن منصور قال، مات أبي سنة ثمانين يعني ومائة وأنا ابن ست عشرة سنة» .

النص الثاني : في ترجمة الحكم بن سنان، أبي عون (٢/ ٣٨٣) : «قال البخاري في "التاريخ الصغير" : لا يكتب حديثه» .

النص الثالث : في ترجمة عبدالله بن سلمة المرادي الكوفي (٥/ ٢١٦) : «قلت : قال البخاري في "تاريخه الصغير" : الذي قال ابن نمير أصح والذي روى عنه أبو إسحاق هو الهمداني، والذي روى عنه عمرو بن مرة هو من رهط عمرو بن مرو جمالي مرادي» .

النص الرابع : أورد ابن رشيد في السنن الأبين : (ص : ١٢٦) قصة أحد مجالس مسلم مع البخاري وقد ذكر حديث : كفارة المجلس ، بسنده إلى أبي هريرة فأعجب مسلم بالحديث، فأخبره البخاري بأنه معلول بهذا الإسناد، فألح عليه مسلم، فقال له البخاري : اكتب إن كان ولابد : «نا موسي بن إسماعيل، نا وهيب، نا موسى بن عقبة، عن عون ابن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : كفارة المجلس [واللغو إذا قام العبد أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك] قال ابن رشيد : وقد روى هذا الحديث البخاري في "تاريخه الصغير"» .

فهذه النصوص الأربعة - وبالأخص منها الأخير - تطلبت مني أن أعيد البحث بتحرٍّ شديد في المطبوع باسم «التاريخ الصغير» ، ولكنها غير موجودة فيه البتة ، ذلك أن الذي بين أيدينا ليس هو

«التاريخ الصغير» مما يقتضي بما لا يدع مجالاً للشك أن يكون هو «التاريخ الأوسط».

وأخلص من هذا كله إلى ضرورة إعادة إخراج «التاريخ الأوسط» مصححًا عليه اسمه الحقيقي، ومحققًا تحقيقًا علميًا اعتمادًا على مخطوطاته، ثم على مقابلة نصوصه بالمصادر التي استقيت منها وغيرها من ضوابط التحقيق الجاد.

وهذه بعض الإشارات لمخطوطات التاريخ الأوسط:

- قال بروكلمان (٣/ ١٧٨): منه قطعة في بنكيبور ١٢: ٦٨٧، وحصلت منه نسخة في حيدر آباد سنة ١٩٣٧ (عن كرنكو).
- والقطعة التي أشار إليها بروكلمان ذكرها سزكين أيضًا في بنكيبور ولكن برقم ٣٢: ١٢ رقم ٦٨٧ وقال (٥٦ ورقة، من القرن الثاني عشر الهجري، ناقص).
- ويقول عبيدالله الرحماني المعتني بالطبعة الثانية من سيرة الإمام البخاري للمباركفوري، هامش ص(١٤٨): «كانت نسخة خطية كاملة للتاريخ الأوسط توجد في المكتبة الحكومية في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية». وأحال على سزكين ١/ ٢٠٤، ولم أجد شيئًا من ذلك في الترجمة العربية ١/ ٣٤٧.

وأخيرًا؛ فإنني أرى رأي السيد أحمد صقر، إذ يقول: «يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن ينشر ما يرتئيه من أخطاء ليعرفها القارئ، وينتفع بها الناشر، وبمثل هذا التعاون العلمي المنشود تخلص الكتب العربية من شوائب التحريف الذي منيت به على أيدي الناسخين قديمًا والطابعين حديثًا» (٩).

الهوامش

١ - انظر في ذلك المقال الماتع الذي نشره مطاع الطرابيشي في مجلة «عالم الكتب» المجلد (٤)، العدد (٣) محرم ١٤٠٤هـ ص٣٦٨ - ٣٧٥ بعنوان: «إصلاح بعض الغلط في النسخة المطبوعة من التاريخ الكبير للبخاري».

٢ - انظر أمالي مصطفى جواد في فن تحقيق النصوص: ١١٧ - ١٣٨، المورد المجلد (٦) العدد (١) ١٣٩٧.

٣ - تصحف في المطبوع من فهرست ابن خير إلى الجباب ص٢٠٥، وأجمعت المصادر على أنه الخفاف. وهو ممن لزم البخاري انظر السير: (١٤/ ٨٨ - ٨٩).

٤ - السير: ١٤/ ٥٢٢.

٥ - ص٢٧ من المطبوع خطأ باسم «التاريخ الصغير».

٦ - قال الذهبي في ترجمته في السير (١٤/ ٣٠٣): «الشيخ العالم الصدوق، أبو القاسم، عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن ابن الخليل ابن الأشقر، راوي «التاريخ الصغير» للبخاري عن مؤلفه. كان محدثًا، معمرًا، إمامًا، مفتيًا».

٧ - انظر المواضع التالية: (١/ ٧٨، ١٩٢، ٢٤٢) - (٢/ ٣٣، ٨٣، ٢٥١، ٣٤٧) - (٣/ ٩٥) - (٥/ ١٩٥) - (١٠/ ٦٦، ٢٦١) وغيرها.

٨ - وقول ابن حجر هذا يبين خطأ سزكين الذي قال عن التاريخ الأوسط: (مرتب ترتيبًا أبجديًا). وقد أصاب بروكلمان حين قال (وهو مرتب بحسب الأزمنة) ٣/ ١٧٨. ومعروف أن سزكين إنما ينقل عن بروكلمان.

٩ - مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر. الطبعة الأخيرة، القاهرة ١٩٧٧(ص١١).

مصادر البحث ومراجعه

* **الإصابة في تمييز الصحابة** : لابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢هـ) . تحقيق البجاوي ٠- القاهرة : دار نهضة مصر، (١٣٨٣هـ) .

* **بيان الوهم والإيهام**، لابن القطان الفاسي، تحقيق آيت سعيد الحسين رسالة دكتوراه مرقونة على الآلة الكاتبة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش .

* **تاريخ الأدب العربي** لبروكلمان، نقله للعربية عبدالحليم النجار ٠- مصر : دار المعارف، ١٩٦٢م .

* **تاريخ التراث العربي** لفؤاد سزكين نقله للعربية فهمي أبو الفضل ٠- القاهرة : الهيئة المصرية العامة. القاهرة (١٩٧١م) .

* **التاريخ الأوسط المطبوع خطأ باسم «التاريخ الصغير»** تحقيق محمود إبراهيم زايد ٠- ط١ ٠- بيروت : ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) .

* **التاريخ الكبير** للإمام البخاري (- ٢٥٦هـ) . تصوير دار الفكر بيروت ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م) عن الطبعة الثانية بحيدر آباد الهند ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) .

* **تهذيب التهذيب** : لابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢هـ) تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ٠- ط١ ٠- ١٤١٥هـ (١٩٩٤م) .

* **السنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين في السند المعنعن** لابن رشيد الفهري . تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ٠- ط١ ٠- الدار التونسية للنشر، ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) .

* **سير أعلام النبلاء** للذهبي (- ٧٤٨هـ) تحقيق جماعة من الباحثين تحت إشراف شعيب الأرناؤوط ٠- ط٧ ٠- مؤسسة الرسالة ١٤١٠هـ (١٩٩٠م) .

* **سيرة الإمام البخاري** . لعبدالسلام المباركفوري . بعناية عبدالله الرحماني المباركفوري ٠- ط٢ ٠- الهند : بومباي، الدار السلفية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

* **صلة الخلف بموصول السلف** ، للروداني (ت ١٠٩٤هـ) . تحقيق محمد حجي ٠- ط١ ٠- بيروت : دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨ .

* **طبقات الشافعية الكبرى** لعبدالوهاب السبكي (٧٧١هـ) . تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي . طبعة عيسى الحلبي . الطبعة الأولى : ١٣٨٣هـ .

* **فهرسة مارواه عن شيوخه** : ابن خير الإشبيلي - ٥٧٥هـ ٠- الطبعة الثانية ٠- القاهرة : الخانجي ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م المأخوذة عن ط١ للمستشرق فرنسسكه قداره . قومش - سرقسطة (١٨٩٣م) .

* **كشف الظنون** لحاجي خليفة . طبعة نور محمد - آرام باغ - كراجي . (دون تاريخ) .

* **لسان الميزان** . لابن حجر العسقلاني - ٨٥٢هـ ٠- بيروت : تصوير مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ/ عن طبعة حيدر آباد الدكن بالهند (١٣٢٩هـ) .

* **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** : للذهبي . (- ٧٤٨هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ٠- مصر : دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

* **هدي الساري مقدمة فتح الباري** لابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢هـ) ٠- ط٣ ٠- القاهرة : المكتبة السلفية ١٤٠٧هـ .

عبدالله كنون
(١٩٠٨ - ١٩٨٩م)
من خلال «سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب»

نجاة المريني
كلية الآداب
جامعة محمد الخامس
الرباط

يهدف هذا العرض إلى إبراز جانب من جوانب عطاءات عبدالله كنون ، وهي عطاءات ثرة من حيث عنايته بالتأريخ لشخصيات مغربية كان لها حظّها في التّعريف بالثقافة المغربية المتعدّدة الأصناف والأشكال ، وفي الكشف عن خصائصها ومميزاتها وطوابعها عبر العصور والأجيال ، وسيركز هذا البحث على الحديث عن عبدالله كنون من خلال سلسلته الشهيرة : ذكريات مشاهير رجال المغرب .

تميزت كتابات كنون أواخر الثلاثينات بخصوصية لها أبعادها في تاريخ الحركة الأدبية في المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، فماذا عن هذه الخصوصية ؟ وماذا عن صاحبها ؟

عبدالله كنون من النوابغ الأفذاذ في تاريخ المغرب في القرن العشرين، فهو موسوعة علمية أسهمت بنصيب وافر في شتى مجالات المعرفة والعلم والأدب، وهو ممّن حباهم الله خلقًا إسلاميًا سمحًا في علاقاته مع الأحياء من البشر بالتوجيه والتعليم والإرشاد، وفي علاقاته مع الأموات في إحياء التراث ودراسته والاعتزاز به .

كنون شخصية مضيئة في تاريخ المغرب، تعددت عطاءاتها، وتنوعت اهتماماتها، فهو الفقيه والأديب والمؤرخ واللغوي والمحقق، لم يترك مجالاً معرفيًا دون أن يترك فيه بصمات واضحة تكشف عن الرؤية العميقة والتحليل الدقيق والفكر الثاقب : ومؤلفاته أغنى ثروة يعتز بها المغاربة كما يعتز بها المشارقة الذين عرفوا كنون محاضرًا ومُحققًا ولغويًا، وعضوًا في أكثر من مجمع علمي لغوي في المشرق والمغرب .

أما الخصوصية التي أريد الحديث عنها في هذا العرض، بل هي موضوعه وجوهره، فهي انصرافه إلى الكتابة عن مشاهير رجال المغرب في حلقاته الشهيرة والفريدة - ذكريات مشاهير رجال المغرب - لقد كانت هذه الحلقات تتويجًا لعمله الرائد : «النبوغ المغربي في الأدب العربي» الذي صدر في طبعته الأولى سنة ١٩٣٧م، بمدينة تطوان ثم في طبعات ثانية وثالثة بعد استقلال المغرب .

كانت غاية كنون في كتاب «النبوغ المغربي» أول الأمر التعريف بالمغرب تاريخًا وسياسةً وأدبًا وفكرًا، فالمغاربة مُقَصِّرُونَ في العناية بتاريخهم وبأدبهم ومن ثم، كما يقول كنون في فاتحة كتاب النبوغ المغربي / الطبعة الأولى : «ونحن نعتقد أننا بتقديم هذا الأثر الضئيل إلى الدوائر العلمية سنُزيل كثيرًا من التوهم والتظنن في تاريخ المغرب الأدبي، وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لأهل هذا القطر، وسوف ينقضي تجنّي

إخواننا من بحاث الشرق على آثارنا وتحاملهم على آدابنا ، لأنّ ذلك لم يكن منهم عن عَمْد وسُوءِ قَصْد ، وإنما هو ارتياء واجتهاد» .

أما في سلسلة ذكريات المشاهير ، فقد كانت غاية كنون التعريف بالشخصيات المغربية «التي فازت بإكليل الغار ، فبقي ذكرها محفوظًا في صدور الدفاتر ، وإن محي من صدور الناس» كما جاء في تقديمه لأول حلقة عن عبدالعزيز الفشتالي (ص٦) .

لقد جاءت سلسلة الذكريات عملاً توسعياً في استعراض ملامح الشخصية المغربية ، إذ لم يكن الحديث عنها في كتاب النبوغ مرضيًا ومريحًا ، يقول كنون في مقدمة الحلقة الأولى من سلسلة ذكريات المشاهير (ص ٦) : «كان النبوغ كتابًا جامعًا ودراسة محيطة بالشاذة والفاذة ، وكان لكل فَصْل فيه مقدمات يراد منها الوصول إلى نتائج ، فلم يتأت التوسع في باب منه دون باب ، وقد بقيت في النفس حاجات متعلقة بتراجم الأشخاص المذكورين فيه ، خصوصًا المشهورين منهم ، والذين يوحي تتبع تراجمهم بمعاني من السموّ النفسي والفخر الأدبي ، هي غاية المراد ومنتهى القصد فأردنا استيفاء تلك الحاجات على حسب الوسع وقدر الإمكان» .

ولعل إقدام معهد مولاي الحسن بمدينة تطوان على نشر خمسة وعشرين جزءًا من سلسلة الذكريات في ظرف خمس سنوات يعد عملاً رائدًا لهذه المؤسسة الوطنية في مدة عصيبة من تاريخ المغرب . وباستقلال المغرب ، فقد قامت «دار الكتاب اللبناني» بإعادة نشر الحلقات السابقة ، ومتابعة نشر ما بقي من الحلقات التي بلغت الأربعين حلقة .

وسلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب بأجزائها الأربعين ، وإن لم تخصص حلقات أخرى لكثير من الشخصيات المغربية التي لا تزال في طي النسيان ، فإنها تشكل مصدرًا مهمّاً من مصادر الثقافة الوطنية المغربية من حيث :

- التراجم
- المصادر
- المنهج

١ - ***التراجم*** : توزعت تراجم الشخصيات التي تناولها كنون في هذه السلسلة بين :

أهل الأدب - رجال العلم - رجال السياسة ، وكلهم أسهم بنصيب قل أو عظم في الأدب (نثرًا أو شعرًا) أو الفقه أو الحديث أو النحو أو التاريخ .

لقد جعل كنون حلقة الذكريات بتراجمها طبقات مختلفة فمنها ، كما يقول في مقدمة أول حلقة عبدالعزيز الفشتالي (ص٨) «منها أهل الأدب ، ومنها رجال العلم ، ومنها الساسة» ، لكنه لم يتمكن من إصدار هذه الحلقات مرتبة في طبقات كما كان يريد لصعوبات اعترضته كما يشير إلى ذلك .

وبناءً على هذه الرؤية في تقسيم الشخصيات إلى طبقات ، وبالرغم من صعوبة التقسيم ، فقد حاولت من خلال الأربعين حلقة أن أوزعها كالآتي :

أهل الأدب : عشرون حلقة ، موزعة بين شعراء وكتاب في أغلب الأحيان ، ولعلّي عن قصد أو غير قصد جعلت تراجم بعض الشخصيات السياسية تندرج في أهل الأدب بالرغم من غلبة العمل السياسي على أصحابها ، ومن أبرزهم المؤرخ الشاعر عبدالعزيز الفشتالي ، والوزير الشاعر ابن إدريس العمراوي ، وأبو جعفر بن عطية الكاتب .

لقد اشتغل كثير من الأدباء والشعراء والمؤرخين في قصور السلاطين وزراءً وكتابًا ، وما رسوا بذلك أعمالاً سياسية خطيرة ، وكان الأقرب إلى التقسيم اندراجهم

في سلسلة الساسة ، لكن عدلت عن ذلك ، فشهرتهم الأدبية والتاريخية هي التي أسعفتنا في التعرف إليهم ، وآثارهم هي المحك الذي أثار الاهتمام بهم وخلد ذكرهم عبر السنين .

رجال العلم : خمس عشرة حلقة ، وتنوّع الميادين العلمية التي برز فيها أصحاب التراجم ، بين العقيدة والفقه والحديث والحساب والرحلة والنحو والتاريخ .

رجال السياسة : وعددهم خمسة ، وهم الإمام إدريس ، وعبدالله بن ياسين ، ويوسف بن تاشفين ، والأمير سليمان الموحدي ، والسلطان سيدي محمد ابن عبدالله .

وقد انحصر اهتمام كنون بالساسة العلماء والأدباء في مجال شهرتهم ، فبالإضافة إلى ممارستهم السلطة أو الحكم ، فإنهم لم يبخلوا في المشاركة العلمية والأدبية بإنتاجهم وعطائهم ، ومن ثم عقدوا حلقات الدرس ، في مجالس خاصة كان لها أكبر الأثر في النهضات العلمية والأدبية التي عرفها المغرب منذ أن تمّ تعريبه .

وإذا كان كنون في تناوله لتراجم هؤلاء الساسة دون غيرهم ، فإن الفرصة لم تتح سابقًا لسؤاله في الموضوع ، وعن الموضوع ، لقد أغفل الحديث عن الكثير من الشخصيات السياسية المغربية التي ملأ ذكرها الآفاق ، وعمت شهرتها الأقطار ، كمؤسس الدولة الموحدية المهدي بن تومرت ، والخليفة أحمد المنصور السعدي وغيرهما .

وقد أشار المؤلف إلى إغفاله تراجم بعض الشخصيات في قوله : «إنما ذكرنا في هذا الكتاب المشهورين من رجال المغرب ، ولم نذكر كل من يستحق الذكر منهم ، وحقاً فإننا قد اقتصرنا على أشهر المشهورين» الحلقة الأولى (ص٨) .

٢ - **المصادر** : وهي النواة المعرفية الأولى التي استقى منها كنون مادته ، فعن طريقها ، وعن طريق تتبع المظان المغربية المختلفة الألوان ، والصعبة المنال ، استطاع المؤلف أن يقدم لنا زادًا معرفيًا انتقاه بدقة وعناية ، في حلة أنيقة مختارة هي سلسلة الذكريات .

لاشك أن المصادر الأدبية والتاريخية التي اتكأ عليها المؤلف في التعريف بشخصيات الذكريات ، كانت عصية إلى حدٍّ ما ، وأغلبها مخطوط في الخزائن الخاصة ، وأغلبها مبتور لا يفي بالمراد ، ولا يسمح بالنقل عنه أو الأخذ منه إلا بمشقة وعناء ، والمادة المعرفية لها مكانتها وقيمتها في التعريف بالشخصيات المتناولة ، وفي التمثيل بالنماذج الأدبية والتاريخية أو في الحديث عن المؤلفات التي تركها أصحابها ولم تحظ بأي اهتمام .

لقد أفادتنا هذه التراجم سعة اطلاع المؤلف ، وصبره على هذا الاطلاع ، وامتياحه الغزير من الكتب المشرقية والمغربية على السواء ، بل وتتبعه في كثير من الدقة لكتابات المشارقة عن المغاربة في قرون قديمة كالقرنين السادس والسابع الهجريين ، لقد استطاع كنون أن يكشف عن جوانب خفية في التاريخ المغربي سياسة وأدبًا وفكرًا من خلال الشخصيات التي كان يترجم ويؤرخ لها ، مبرزًا مراحل تطور الحياة الفكرية والأدبية في الوقت نفسه .

أما المصادر التي اعتمد عليها كنون في كتابة الذكريات فيمكن تصنيفها إلى :

- مصادر تاريخية : تهتم بالتاريخ جملة سواء عند الكتاب المشارقة أو المغاربة أو عند بعض المستشرقين الذين اهتموا بالأدب والتاريخ العربيين ، وبطبيعة الحال ، فإن المؤلفات التاريخية المغربية هي المصادر الأغلب التي استقى منها المؤلف مادته ، ككتاب المن

بالإمامة لابن صاحب الصلاة، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، والمعجب للمراكشي ومناهل الصفا للفشتالي، وغير ذلك من المصادر التاريخية المهمة .

- مصادر بيليوجرافية : تعنى بتراجم الأعلام وكتاباتهم . وبالرغم من كثرتها وتنوعها ، فإن حظ المترجم لهم من المغاربة قليل لا يسعف على تقديم مادة غنية في الموضوع ، ككتب ابن سعيد وابن دحية وابن الأبار والفتح بن خاقان وابن عبدالملك والخفاجي وغيرهم .

- مصادر أدبية : وتعنى برصد الحركة الأدبية وتطورها من خلال التأريخ للأعلام أو للأحداث ككتاب الإحاطة لابن الخطيب ونفح الطيب وأزهار الرياض للمقري والخريدة للأصفهاني ، وعنوان الدراية للغبريني .

- كتب الوفيات : وإن كانت قليلة بالنسبة للمصادر الأخرى ، فهي مفيدة في ضبط وفيات بعض الأعلام ، ككتاب وفيات الأعيان لابن خلكان والوافي بالوفيات للصفدي ووفيات ابن قنفذ ووفيات الفشتالي .

- كتب الجغرافيا والرحلات : وخاصة المؤلفات المغربية ، ككتاب نزهة المشتاق للإدريسي ، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة ، وغيرهما .

- مؤلفات أصحاب التراجم : وأغلبها مخطوط ، اطلع عليه المؤلف أو حصل على مصورات منها ، فأخذ منها استشهاداته الشعرية والنثرية ، مشيراً إلى المطبوع منها والمخطوط .

- المجلات والدوريات : وخاصة تلك التي كانت تصدر في مصر وفي أوربا منذ مطلع القرن العشرين .

٣- **المنهج** : اعتمد عبدالله كنون في كتابة هذه التراجم على المنهج التاريخي ، فقد استقى المادة مما جمعه ودونه من أخبار ومعلومات من مؤلفات بعينها للمُتَرْجَم له ، أو من مؤلفات غيره عند الحديث أو الثناء عليه وعلى مؤلفاته ، ومن حين لآخر يُقدم المؤلف نماذج شعرية أو نثرية تتفاوت طولاً وقصراً ، ويظهر أنه كان يتخير تلك الشواهد ، فيثبت ما يراه مناسبًا ويشير إلى غيره في مواضع بعينها .

- لقد اهتم المؤلف في هذه التراجم بجمع المعلومات من المظّان القديمة ، ومن المخطوطات التي توافرت لديه ، مما طبع كتابته بطابع الشمولية ، فهو لا يخص أياً من مُتَرْجَميه بتوثيق الأخبار أو النقولات الواردة عنده من أي مصدر كان ، وإنما يرويها كما قرأها في تلك المصادر أو كما وعتها ذاكرته ، ومن ثم يصعب على القارئ الراغب في توثيق أي خبر أو العودة إلى أي قول أن يتحرى المصدر المنقول عنه وصاحبه .

وكنون عالم ثقة ، في كتاباته ورواياته وأخباره ، لذلك وبالرغم من علامات الاستفهام التي يمكن أن يطرحها القارئ حول نقولاته وأخباره ، فإن تحري الأسباب التي جعلت كنون يقبل على هذا النوع من التأليف بعناية وشغف كفيل بطرح كل استفهام أو تشكك في أي قول .

إن المشكل الذي كان يعاني منه الأدب المغربي هو التشتت والضياع ، فالانكباب على جمع هذا الأدب ولَمِّ شتاته أكبر هدف توجهت إليه عناية كنون أملاً في :

١ - التعريف بالثقافة المغربية عبر عصورها .

٢ - التعريف بالشخصيات الرائدة في تاريخ المغرب .

٣ - الاطلاع على أكبر قدر من المؤلفات التي تتحدث

عن المغـــرب وتاريخـــه وأدبه ، وتدوين الآراء والأقوال لا أكثر .

٤ - تدوين النصوص الشعرية والنثرية التي كانت في حكم المفقودة خوف ضياعها من جديد .

يتحدث كنون في مقدمة الحلقة الأولى من سلسلة الذكريات (ص٧) عن المنهج الذي اتبعه في كتابة هذه الحلقات فيقول : «وقد نهجنا في كتابته منهاجًا أدبيًا بديعًـا ، فأنت تقرأ الترجمـة ، وكأنك تقرأ قصـة متسلسلة الفصول ، فلا تشعر بسأم ولا ملل من سياق النقول ، ولا من تحقيق الأقوال ، ومناقشة الآراء ودَفْع الشّبَه ، وحرصنا فيه ما أمكن على سلاسة العبارة وطلاوة الأسلوب وإبراز حرارة النكتة ، واستثارة روح الإعجاب مع الأمانة والصدق وعدم الغلو في مدح أو تقدير شيء من الأشياء .

وذلك لأن الكتاب إذا خلا من هذه الأمور ، وكان الأسلوب العلمي الجاسي غالبًا عليه ، فإنه قلما يقرأ ، وإذا قرئ فإنما يتناول من أطرافه» .

فهذا النص ، في تقريرية واضحة يشير إلى المنهج المتبع في هذه السلسلة من ذكريات المشاهير ، غايته تقريب الكتاب من القارئ ، أي قارئ ، فهو لا يريد قارئًا متخصصًا ، وإنما قارئاً يلمُّ بتاريخ وطنه ويُعنَى بثقافة بلاده وأدبها ويتعرف إلى مشاهير الرجال في فنون الكتابة والقول ، لهذا السبب لم يمل المؤلف إلى تحقيق الأقوال ولا إلى ضبط النقولات ولا إلى مناقشة الآراء ، مما يُضَيِّعُ عليه فرصة تتبع الأخبار ، أو فرصة انصراف القارئ عن الكتاب .

لقد أدرك المؤلف منذ البداية ما كان يعانيه تاريخ المغرب وأدبه وحضارته من تهميش وإهمال ، فانصرف إلى تأليف الموسوعة المهمة «النبوغ المغربي في الأدب العربي» وإلى تأليف «ذكريات مشاهير رجال المغرب» ليدافع عن تاريخ المغرب وأدبه ، وليجليَ الصدأ الذي علا سطح كل دراسة هدفت الإساءة إلى المغرب عن قصد أو عن غير قصد .

لقد كانت ثقافة كنون الواسعة ووطنيته الصادقة أهم ركيزتين استند إليهما في كتابه سلسلة المشاهير ، مجليًا الغامض ، ومدافعًا عن أدباء وعلماء المنطقة ، متحديًا آراء المتعصبين والمستخفين بتاريخ المغرب وحضارته وفكره ، مثبتًا ، بالحجج الدامغة أن للمغاربة وزنهم وثقلهم في ميدان الإنتاج الأدبي والعلمي ، وقد تحدث الفريد البستاني في التوطئة التي كتبها للمنتخب من شعر ابن زاكور الذي اهتم بنشره وتقديمه عبدالله كنون ملخصًا كل الأوصاف والنعوت حيث قال : «الأستاذ عبدالله كنون علم من أعلام الأدب المغربي ، أديب منتج ، وإنتاجه حي مثمر ، مؤرخ ثقة ، منشئ بليغ ، متين العبارة ، رشيق الأسلوب ، بحّاثة نقّادة ، يغوص على درر المعاني يستخرج جواهرها فينظمها عقودًا مضيئة في جيد الأدب العربي .

يشتغل بهدوء وصمت ، يَأنَفُ الشهرة والتبجّح ، يكره الظهور والدعاية !

تراه في مختبره الأدبي وإن شئت قل في منسكه ، مكبًا على الدرس والبحث والتنقيب والتحقيق ، بين تحبير وتحرير وتصنيف . يعمل حبًا بالعمل ، يجاهد في سبيل الأدب لأجل الأدب ، يحوم في سماء الفن شغفًا بالفن ، له صفحات لامعة وجولات موفقة في الأدب العربي» .

هكذا كان عبدالله كنون نبعًا فياضًا وعينًا ثرَّةً في غزارة إنتاجه وتنوع تآليفه ، شخصية مضيئة في تاريخ المغرب الأدبي والعلمي .

تاريخ الكتاب العربي المطبوع

لمحمد سلمان علي

إبراهيم نويري الأميري - الجزائر

علي، محمد سلمان. تاريخ الكتاب العربي المطبوع. - ط ١٠ - الجزائر: دار الهدى، عين مليلة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. - ٩٦ص.

يتناول محمد سلمان علي، الأستاذ المحاضر بمعهد علم المكتبات بجامعة قسنطينة - الجزائر، في هذا الكتاب المهم موضوع تاريخ الكتاب العربي المطبوع، وهو موضوع وثيق الصلة بتاريخ الثقافة العربية الإسلامية وبإسهاماتها المتنوعة في الحضارة. ويسجل المؤلف علامة تعجب بخصوص تأخر ظهور الطباعة في العالم العربي، إذ على الرغم من أن للعرب فضلاً في إيصال صناعة الورق إلى أوربا، وهو أحد الأسباب التي أدّت إلى اختراع الطباعة الحديثة على يد الألماني جوتنبرغ (GUTENBERG) في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي.. ومع ذلك فإن الدول العربية لم تعرف الطباعة إلا في بداية القرن الثامن عشر، إذ ظهرت أول مطبعة سنة ١٧٠٦ في مدينة حلب السورية عن طريق مسيحيين عرب، وذلك بمساعدة الكنيسة الشرقية في ولاية الأفلاق برومانيا.. ثم تلتها بعد ذلك مطبعة ثانية في أحد أديرة جبل لبنان، ويرجع الفضل في ظهور هذه المطبعة إلى السوري: عبدالله زاخر الذي صنع حروفًا طباعية عربية لهذه المطبعة. بيد أن هذه المحاولات البدائية اعترضت سبيلها عوائق كثيرة أثرت عليها سلبًا، ومن ذلك ضعف العامل المادي، وتردي الأوضاع العلمية والثقافية والاجتماعية... إلخ.

أما عن فكرة تأليف الكتاب فيقول المؤلف في المقدمة: «بدأت عندي فكرة إعداد دراسة عن تاريخ الكتاب العربي المطبوع بعد أن كلفت بتدريس تاريخ الكتاب بشكل عام، وتاريخ الكتاب العربي بشكل خاص في معهد علم المكتبات والمعلومات بجامعة قسنطينة، وإلقاء محاضرات عن تاريخ الكتاب العربي في معهد علم المكتبات والمعلومات بجامعة وهران.

وقد وجدت سهولة في تدريس تاريخ الكتاب الأجنبي وذلك لتوفر المراجع عنه باللغات الأجنبية، أو ماهو مترجم إلى اللغة العربية. أما فيما يتعلق بتدريس تاريخ الكتاب العربي فوجدت صعوبة كبيرة، ويعود ذلك لعدم توفر المراجع عنه باللغة العربية، غير أني تحصلت على بعض المعلومات المتفرقة هنا وهناك عن بعض الدول العربية، أما البعض الآخر فلم أجد أي معلومات عنها في هذا المجال. مع العلم أن أقسام ومعاهد علم المكتبات والمعلومات متواجدة في معظم أرجاء الوطن العربي، التي يدرس بها تاريخ الكتاب الأجنبي بشكل جيد وشامل. أما تاريخ الكتاب العربي فيدرس بشكل مبسط وغير كامل، ولهذه الأسباب قمت بإعداد هذه الدراسة بعد مراسلة بعض المؤسسات العربية المختصة»..

هذا وقد تناول الكتاب في محتواه، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة الفصول التالية:

- الفصل الأول: تاريخ الكتاب العربي في بعض الدول الغربية.
- الفصل الثاني: تاريخ الكتاب العربي في تركيا.
- الفصل الثالث: تاريخ نشر الكتاب العربي في لبنان.
- الفصل الرابع: تاريخ نشر الكتاب العربي في سوريا.
- الفصل الخامس: تاريخ نشر الكتاب العربي في مصر، ودور مطبعة بولاق، والمطابع الرسمية الأخرى والخاصة في هذا المجال.
- الفصل السادس: تاريخ نشر الكتاب العربي في العراق.
- الفصل السابع: تاريخ نشر الكتاب العربي في الدول العربية التالية (فلسطين، المملكة العربية السعودية، *الكويت، عُمان، الأردن، اليمن*).
- الفصل الثامن: تاريخ نشر الكتاب العربي في الجزائر منذ الاحتلال الفرنسي إلى مابعد الاستقلال.
- الفصل التاسع: تاريخ نشر الكتاب العربي في تونس من فترة ماقبل الانتداب الفرنسي إلى مابعد الاستقلال.

الفصل الأول - يتعرض الفصل الأول في هذا الكتاب إلى تناول **تاريخ الكتاب العربي في بعض الدول الغربية**: حيث يؤكد المؤلف أن تاريخ اهتمام الدول الغربية بنشر الكتاب العربي يرجع إلى بداية القرن السادس عشر، وهذا الاهتمام له عدة أسباب وعوامل منها:

١ - عامل ديني يرمي إلى تفنيد بعض الكتب الإسلامية والرد عليها، إضافة إلى نشر الكتب التي تتحدث عن الدين المسيحي باللغة العربية وإرسالها إلى شعوب الدول العربية قصد نشره هناك.

٢ - العامل الثاني ويهدف إلى تطوير عملية الاستشراق والاطلاع على شتى مجالات المعرفة التي دوّنها العلماء العرب المسلمون، ومن أوائل الكتب العربية ذات المضمون الديني التي طبعت في أوربا كانت في إيطاليا، ونذكر منها:

- كتاب **الصلاة**، ويتضمن صلوات حسب الطقوس الشرقية.. (واسم الكتاب «**الكامل**».. طبع في مدينة فانو سنة ١٥١٤ باللون الأحمر والأسود).

- كتاب **المزامير**، وقد طبع في مدينة جنوة سنة ١٥١٦م تحت إشراف القس أغطينوس.

وتعدّ روما أهم وأبرز المدن الإيطالية التي اهتمت بنشر الكتاب العربي، ويعود ذلك إلى المركز الديني المسيحي الذي تحتله بين المسيحيين خاصة الكاثوليك منهم.

كما قامت مطبعة اليسوعيين بنشر العديد من الكتب العربية منها: الأجرومية لابن آجروم، والكافية لابن الحاجب، وكتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والآفاق للإدريسي، وكتاب القانون الثاني في الطب لابن سينا.

أما منشورات مجمع الإيمان، الذي تأسس في الربع الأول من القرن السابع عشر، فقد تركزت على طبع «الكتب المقدسة» لأن الغرض الأول لهذا المجمع هو نشر المذهب الكاثوليكي.

أما ماطُبع بالعربية في مدينة باريس فيشير بعض الدارسين إلى أن مطبعة «سافاري» التي تأسست سنة ١٦٢٠م، (هو نفسه الذي افتتح مطبعة في روما، عندما كان سفيراً لبلاده فيها)، هي المطبعة الوحيدة التي اهتمت بالنشر العربي، وقد تمحورت الكتب العربية المطبوعة آنذاك حول كتب؛ دينية ونحوية وتاريخية وفلسفية.. ومن بين الكتب الدينية المسيحية التي

نُشرت نذكر كتاب المزامير والكتاب المقدس وكتاب التعليم المسيحي. هذا؛ وقد أصدر ملك فرنسا لويس الثالث عشر في النصف الأول من القرن السابع عشر مرسومًا سنة ١٦٣٠م إلى جميع المطبعيين باللغات الشرقية أن يطبعوا العهد الجديد والتعاليم المسيحية، وكتب النحو باللغات الشرقية. ومن بين الكتب التي نشرت آنذاك أيضًا كتاب صغير بعنوان «العهد والشروط التي شرطها محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - لأهل الملة النصرانية».. وقد طُبع بالعربية واللاتينية، وكان الغرض منه هو تبيان عقلية التسامح الديني الموجودة لدى المسلمين، وذلك قصد تشجيع التجار الأوربيين على القدوم إلى موانئ المشرق.

أما المنشورات العربية في هولندا وألمانيا وبريطانيا فيمكن القول إنها تركزت على نشر الكتب الدينية والفلسفية، وكذا الطبية والتاريخية. وبعد هذا العرض استخلص المؤلف هذه الاستنتاجات:

١ - أن الدول الأوربية سبقت الدول العربية في طباعة الكتاب العربي، وهذا لعامل تقدم الفن المطبعي، وكذا لمساعدة المهمة التبشيرية.

٢ - تركز الاهتمام أكثر بنشر الكتب الدينية، وهذا دائمًا - كما أشرنا - لقوة الخلفية العقيدية.

٣ - بعض الكتب العربية التي نشرت في الدول الغربية كانت تعاني من نقص في رسم الحروف والحركات، بينما البعض الآخر كان يُطبع بشكل جيد من حيث الشكل والإخراج.

ومع ذلك ينبغي الاعتراف بأن تلك الدور والمطابع وضعت اللبنات الأولى لطباعة الكتاب العربي طباعة عصرية.

الفصل الثاني - يدور هذا الفصل حول موضوع **ظهور النشر العربي في تركيا**: وذلك خلال الفترة العثمانية، حيث كانت معظم البلاد العربية تحت النفوذ التركي، ويرى المؤلف بهذا الخصوص أن المطبعة دخلت إلى تركيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، على يد رجل يهودي يدعى «إسحاق جرسون» الذي أحضر إلى الآستانة مطبعة وحروفًا عبرية ينشر بها كتب الديانة اليهودية المخطوطة، وعلى الرغم من تركيز هذه المطبعة على نشر الكتب العبرية في شتى المجالات إلا أنها ومن ناحية أخرى كانت سببًا في حث الأتراك على أن تكون لهم مطبعة خاصة بهم، وبعد توقف تلك المطبعة بقرار حكومي خوفًا من تشويه الكتب الدينية والتراث العام، دخلت الطباعة العربية إلى تركيا على يد «سعيد أفندي» ابن سفير تركيا في باريس آنئذ. كالحصول على ترخيص خاص بطبع كتب الحكمة واللّغة والتاريخ والطب... إلخ، وشرعت المطبعة في نشر بعض الكتب التي تتعلق بأصول العلاقات الفارسية التركية، والدول الغربية التي تهتم بالملاحة البحرية، وبعض القواميس والخرائط.

وصفوة القول إن ماطُبع في تركيا، وفي تلك الفترة، يعد ضئيلاً جداً بالنسبة لإمبراطورية مترامية الأطراف، كما أن الكتب المنشورة في تلك الفترة امتازت بدقة الطباعة وقلة الأخطاء المطبعية، بيد أنها لم تجد الرواج المطلوب لأن الحياة الثقافية والاجتماعية كانت مقتصرة على فئة معينة من أفراد المجتمع التركي، وكذا بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية، وعدم تقديم الحكومة مساعدات خاصة بمجال الطباعة.

الفصل الثالث - تاريخ نشر الكتاب العربي في لبنان: دخلت الطباعة إلى لبنان مبكرًا مقارنة بالدول العربية الأخرى، ولا شك أن ذلك يعود إلى سعي الكنيسة الكاثوليكية لضم الطوائف المسيحية في لبنان إليها، وذلك منذ القرن السادس عشر، لذا ساعدت الكنيسة على قيام أول مطبعة في لبنان سنة ١٦١٠م في دير قزحيا، ولكن هذه المطبعة لم تنشر شيئًا يذكر باللغة العربية، وإنما طبعت كتاب المزامير باللغة السريانية.

ويرتبط تاريخ أول مطبعة عربية في لبنان باسم السوري عبدالله زاخر (من مواليد سنة ١٦٨٠م بمدينة حماة)، وهو مسيحي كاثوليكي، أقام في لبنان - بعد النزاع الديني الذي شب في سوريا بين الكاثوليك والأرثوذكس - وأنشأ بها مطبعة سنة ١٧٣١م، وذلك لطباعة الكتب الدينية باللغة العربية، وقد أحضر هذه المطبعة من أوربا، كما توصل إلى تصنيع حبر ثابت للطباعة. . ومن ضمن منشورات هذه المطبعة: كتاب «ميزان الزمان»، وكتاب مزامير داود، وبعض الكتب العربية في التصوف.

أما المطبعة الأمريكية فقد نقلت فرعها العربي من مالطا إلى بيروت سنة ١٨٣٤م قصد طبع الكتب باللغة العربية، وفعلاً فقد كان من منشوراتها كتب المطالعة والتعليم وكتاب مبادئ النحو للكاتب المسيحي ناصيف اليازجي، كما نشرت هذه المطبعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر «الكتاب المقدس» بطبعة أنيقة خالية من الأخطاء، وكتاب «العهد الجديد»، كما أسهمت أيضًا بطبع الصحف والمجلات باللغة العربية، هذا إلى جانب طبع الخرائط والأطالس والمصورات الطبية التي كان يستعملها الأمريكيون في مدارسهم وجامعاتهم.

أما المطبعة الكاثوليكية، التي تأسست كرد فعل على نشاط المطبعة الأمريكية، حيث قام الرهبان اليسوعيون بأنفسهم بتأسيس مطبعة عربية بلبنان سنة ١٨٤٨م، فقامت بطبع النشرات والمؤلفات الدينية والعلمية. . وبعد أن زُوّدت الإرسالية اليسوعية بمطبعة ثانية هدية من اللجنة الفرنسية لمدارس الشرق. . تمكن هؤلاء من طبع ثلاث مئة وخمسين ألف نسخة لثلاثين عنوانًا خلال أربع سنوات. هذا، وقد نالت هذه المطبعة الميدالية الذهبية على نشر الكتاب المقدس، كما اعتبرت من أنشط وأهم المطابع في المشرق العربي.

أما المطابع الفردية فقد أقيم العديد منها في لبنان نذكر منها المطبعة السورية، وهي أول مطبعة يملكها فرد، أسّسها خليل الخوري لطبع جريدة «حديقة الأخبار»، وقد نشرت أيضًا كتاب «ديوان المتنبي» الذي حققه بطرس البستاني. إلا أنها لم تعمر طويلاً فقد توقفت سنة ١٩١١م بعد أن أدت خدمات معتبرة لقراء العربية.

وفي سنة ١٨٥٨م أسس إبراهيم نجار مطبعة سميت بالمطبعة الشرقية، ومن ضمن منشوراتها «تاريخ سلاطين بني عثمان»، وهو من تأليف صاحب المطبعة، كما أسس يوسف الخوري مطبعة سميت بالمطبعة العمومية، وكان من منشوراتها كتاب «تاريخ سوريا» للمطران يوسف الدبس.

كما تأسست العديد من المطابع في بيروت وبعض المدن اللبنانية الأخرى، وهذا بسبب إقبال اللبنانيين على قراءة الجرائد والمجلات والقصص والكتب العلمية والأدبية والمدرسية.

ورغم صغر مساحة لبنان، وقلة عدد السكان، فإنها لا تزال تتبوأ مكانًا بارزًا في نشر المطبوعات العربية؛ وتصل منشورات دور الطباعة اللبنانية إلى كافة الأقطار العربية وبعض الدول الأجنبية. ونظرًا للدور المميز الذي قام به هذا البلد في تاريخ الطباعة العربية فقد استخلص المؤلف مايلي:

١ - يعد لبنان أول بلد عربي نشطت فيه الطباعة، إذ قامت أول مطبعة سنة ١٦١٠م في دير قزحيا، وإن كانت لم تطبع شيئًا يذكر باللغة العربية.

٢ - يعود الفضل في إنشاء أول مطبعة عربية في لبنان إلى السوري عبدالله زاخر، الذي سبك الأحرف العربية بنفسه.

٣ - كان للتنافس بين الكاثوليك والبروتستان في نشر مذهبيهما في لبنان، دور ملحوظ في تنشيط الطباعة وافتتاح المدارس.

٤ - يلاحظ أن الكتب الأولى التي طبعت في لبنان، كانت في معظمها كتب دينية، وهذا يعود إلى طبيعة المطابع واتجاهاتها.

الفصل الرابع - نشر الكتاب العربي في سوريا:

دخلت الطباعة إلى سوريا عن طريق الكنيسة الملكية

الأرثوذكسية، حيث افتتح البطريق دباس مطبعة بمدينة حلب سنة ١٧٠٦م، بعد أن تلقى آلات الطباعة من قسطنطين بيانكو، وقد ركزت هذه المطبعة على نشر الكتب الدينية، أما أول كتاب غير ديني يطبع في سوريا فهو ديوان ابن الفارض، سنة ١٨١٤م، وذلك بمطبعة حجرية يملكها رجل أجنبي من جزيرة سردينيا.

أما مدينة دمشق فقد دخلتها الطباعة منذ دخول جيوش إبراهيم باشا، التي كانت تستعمل مطبعة حجرية لطبع المنشورات والأوامر العسكرية، أما أول مطبعة استخدمت الحروف المتحركة فهي مطبعة حنا الروماني وذلك سنة ١٨٥٥م، ونشرت كتابين دينيين هما: **«كراسة عشية الأحد»** و**«المزامير»**.. وفي سنة ١٨٦٥م انتقلت ملكية هذه المطبعة إلى سليم مدور، حيث طبع هذا الأخير ديوان **«أحمد الخلوف»** وكتاب **«نزهة الأرواح ومرتع الأفراح»** للقس نعمة الله العبواري.. ثم انتقلت ملكيتها مرة أخرى إلى محمد حنفي سنة ١٨٨٢م وسميت بالمطبعة الحنفية نسبة لصاحبها، وقد قامت بنشر بعض الكتب منها: **«ديوان أحمد بك الكيواني الدمشقي»**، وديوان **«الأمير منجك باشا»** وكتاب: **«تحير المقالة في الحيلولة والكفالة»** للسيد محمود حمزة مفتي دمشق، وكتاب: **«إيضاح الدلالات في سماع الآلات»** للشيخ عبدالغني النابلسي.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر قامت في دمشق عدة مطابع خاصة أخرى تابعة لأفراد أسهمت إلى حد ما في نشر الكتب الأدبية والدينية على وجه الخصوص، وأهم تلك المطابع مايلي:

١ - مطبعة جيب أبو خالد سنة ١٨٨٠م ومن أهم منشوراتها: **«ديوان صفي الدين الحلي»**، و**«الفرائد البهية في القواعد الفقهية»**.

٢ - المطبعة الخيرية سنة ١٨٨٠م أيضًا، ومن أهم منشوراتها: **«ديوان نشأة الصبا ونسمة الصبا»** لمحمد سليم أفندي المعروف بالقصاب حسن الدمشقي.

٣ - مطبعة روضة دمشق، ومن أهم منشوراتها كتاب **«إتحاف الطلبة بالأسئلة المنطقية والأجوبة»** لمحمد ابن علي المرعشي.

٤ - مطبعة الإنصاف، وهي للشقيقين أديب وصالح الجيلاني، وقد طبعت بعض الجرائد والكتب المدرسية والمؤلفات القديمة لحساب المؤلفين أو المكتبة الهاشمية.

هذا؛ وللإشارة فإن الطباعة في سوريا لم تنشط إلا بعد الاستقلال وتكاثر عدد الصحف الوطنية والمدارس العربية.

الفصل الخامس- تاريخ نشر الكتاب العربي في مصر: يرى الكثير من الدارسين أن دخول الطباعة إلى مصر ارتبط بالحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر، حيث لجأ هذا الأخير إلى مطبعة نشر الإيمان بالفاتيكان التي أمنت له ثلاث طابعات مع الأدوات اللازمة لإدارتها.

أما الطباعة بمصر بعد خروج الفرنسيين فلم تظهر إلا في بداية العشرينات من القرن التاسع عشر، ويعود ذلك إلى أسباب نذكر منها: الصراع السياسي على الحكم، إذ ظهرت ثلاث قوى في مصر أخذت تتنازع على الحكم، فالأتراك يريدون استرداد سيطرتهم بعد أن انتزعها منهم المماليك، والمماليك بدورهم يريدون إعادة سيادتهم، بعد فقدهم لها من قبل الفرنسيين، ثم الشعب المصري صاحب البلاد الأصلي، الذي أنهى الصراع لصالحه، وذلك بتعيينه لمحمد علي واليًا على مصر.

وقد أدرك محمد علي ومنذ الوهلة الأولى أهمية الطباعة ودورها في بناء الدولة، لذا أراد الاعتناء بهذا الجانب، كما أصدر مرسومًا يقضي بعدم السماح للأجانب بالطبع في مطبعة بولاق دون استصدار تصريح مسبق، وذلك على أثر نشر قصيدة **«ديانة الشعوب الشرقية»** التي تدعو إلى الكفر بكل دين!

وقد كانت جريدة **الوقائع المصرية** تعلن عن الكتب التي تم طبعها في بولاق، وقد بلغت الكتب التي تم

نشرها على نفقة الحكومة: ٣٠٢٨٤٣ نسخة، أما التي طبعت على نفقة أصحابها فبلغت: ١٠٢٢٣١ نسخة.

أما أهم المطابع التي ظهرت في مصر فهي:

١ - مطبعة الطوبجية (مطبعة مدرسة المدفعية)، ومن أهم منشوراتها: «**الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار**»، وكتاب «**كليلة ودمنة**».

٢ - مطبعة المكتب الموسيقي، التي اختصت بطبع النوتات الموسيقية.

٣ - مطبعة ديوان المدارس، التي اختصت بطبع الكتب المدرسية.

٤ - مطبعة المدارس الحربية، ومن أهم منشوراتها: كتاب «**الأزهار الرياضية في الأعمال الطبوغرافية**» ترجمة عبدالرحمن علي، وكتاب «**القانون المالي المصري**» وكتاب «**المدارس الحربية**».

أما بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م فقد بدأت مطبعة بولاق تستبدل أدواتها القديمة بأدوات حديثة، كما زاد عدد عمالها من الأجانب خاصة، وطبع بها كتاب «**الإحصاء العام**» باللغتين العربية والفرنسية، وكذا قاموس عربي مهم هو «**لسان العرب**» لابن منظور، وإلى جانب مطبعة بولاق وجدت عدة مطابع أخرى رسمية تابعة للمؤسسات والمصالح العامة، ومنها مطبعة المساحة التي قامت بطبع الخرائط الخاصة والخرائط الطبوغرافية باللونين الأسود والأزرق. وفي سنة ١٩١٣م فكرت مصلحة المساحة في طبع المصحف الشريف بطريقة «الفوتوليتو» على أن تقوم مطبعة بولاق بتقديم تجارب الصفحات مطبوعة طبعًا متقنًا.

أما في سنة ١٩٢٤م فقد تم طبع المصحف الشريف بطريقة الطباعة الملساء (أوفست).

أما المطابع الخاصة في مصر فقد تكاثرت بسبب انتعاش الوضع الاقتصادي، وازدياد عدد الصحف وانتشار التعليم، ومن أهم تلك المطابع: مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مطبعة المعارف، المطبعة العمومية، وغيرها.

هذا؛ وقد ظلت مطبعة بولاق حتى الخمسينات من هذا القرن من أكبر المطابع في العالم العربي، وأكبر مطبعة عربية في العالم، ثم ظهرت فيما بعد بعض المطابع الأخرى مثل مطبعة جامعتي القاهرة والإسكندرية وغيرها من المطابع الرسمية الأخرى، هذا؛ وتجدر الإشارة إلى أن وضع الطباعة في مصر - بعد الاستقلال - شهد تحولاً كبيراً بسبب تزايد نسبة المقروئية، كما أصبح الكتاب المصري معروفًا ومشهورًا في كافة الأقطار العربية.

الفصل السادس - يتعرض الكاتب في هذا الفصل إلى **تاريخ نشر الكتاب العربي في العراق**: ويرى - استنادًا إلى بعض الدارسين - أن نشر الكتاب في هذا القطر قد تأخر مقارنة بالأقطار العربية المذكورة في الفصول السابقة، ولعل ذلك يعود إلى تخوف العثمانيين من أمر انتشار العلم والثقافة في بعض الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية - في ذلك العهد - وكان أول كتاب يطبع في العراق باللغة العربية هو «**دوحة الوزراء في تاريخ وقائع الزوراء**» وذلك بمطبعة دار السلام ببغداد سنة ١٨٣٠م لصاحبها باقر التفليسي وهو من أصل تركي واتخذ الإيرانية جنسية له.

ثم ظهرت بعد ذلك مطبعة كربلاء الحجرية، التي قامت بنشر بعض الكتب الدينية والتاريخية منها كتاب «**مقامات الألوسي**»، أما أول مطبعة عراقية أنشئ فيها مسبك لصب الحروف هي مطبعة الآباء الدومينيكان في الموصل سنة ١٨٥٩م، وكان أول كتاب نشرته تلك المطبعة هو «**رياضة درب الصليب**» سنة ١٨٦١م، وكانت هذه المطبعة تنشر بالعربية والفرنسية والكلدانية.

أما المطبعة الرسمية الثانية فأسست في الموصل سنة ١٨٧٥م وقد قامت بطبع صحيفة الولاية «**موصل**»، كما طبعت جريدة «**نينوي**» لسان حال الاتحاديين العثمانيين، وكذا جريدة «**نجاح**» لسان حال حزب

الائتلاف. هذا؛ وقد أصيبت الطباعة في العراق إبان الحرب العالمية الأولى بحالة من الركود لعدم ورود الورق وكذا قطع الغيار، بل إن بعض دور الطبع قد أغلقت أبوابها، بينما استمرت مطابع أخرى تشتغل يومًا وتعطل أيامًا حتى نهاية الحرب.

أما بعد الاستقلال فقد ظهرت بعض دور النشر منها شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة، وشركة النشر والطباعة العراقية، وشركة التجارة والطباعة المحدودة وغيرها، بالإضافة إلى العديد من المطابع الرسمية. وبعد هذا العرض الوجيز يصل المؤلف إلى هذه الملاحظات:

١ - يعود تأخر دخول الطباعة إلى العراق مقارنة ببعض الأقطار العربية المشرقية الأخرى، إلى الأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية المتأخرة في العراق، وكذا بعده عن طريق المواصلات إلى أوربا.

٢ - يعود الفضل في أول نشر عربي بالعراق لناشرين إيرانيين خاصة فيما يتعلق بالكتب التاريخية والأدبية والدينية.

٣ - قامت بعض المطابع الخاصة بدور معتبر في صناعة الحروف، وتعليم العراقيين فن التجليد.

٤ - شهد العراق بعد ثورة ١٩٥٨م تقدمًا معتبرًا في الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي انعكس إيجابًا على تقدم الفن المطبعي، من حيث استخدام الآلات الطباعية الحديثة، والأيدي الطباعية الماهرة.

الفصل السابع - في هذا الفصل من الكتاب، بسط المؤلف الحديث حول **تاريخ طباعة الكتاب العربي في مجموعة من الأقطار العربية**: خاصة تلك الأقطار الفتية، التي تشهد نهضة وتطورًا يمتاز بوتيرة متسارعة؛ ففي الأردن تأسست أول مطبعة سنة ١٩٢٢م وهي مطبعة خليل نصر، وهذه المطبعة كانت قائمة في الأصل بمدينة حيفا منذ سنة ١٩٠٩م، إلا أنها انتقلت فيما بعد إلى عمان، وقد أصدرت هذه المطبعة أول جريدة أردنية هي «**جريدة الأردن**»، كما قامت بطبع مطبوعات الحكومة والجيش، والكتب والجرائد وكذا المطبوعات التجارية، ثم تأسست في سنة ١٩٢٦م مطبعة ثانية هي «المطبعة الوطنية» لصاحبها محمد السمان، وقد تولت طباعة الجريدة الرسمية ومعظم الصحف المحلية.. ثم ظهرت مطبعة الاستقلال، التي أنشأها جودت شعشاعة سنة ١٩٣٢م. هذا؛ وتشهد اليوم عملية طباعة الكتاب في الأردن تطورًا غير مسبوق في تاريخ هذا البلد.

أما في اليمن فقد تأسست أول مطبعة بأمر من السلطان عبدالحميد الثاني في العاصمة صنعاء، وكانت تطبع جريدة «صنعاء»، وهي صحيفة رسمية أسبوعية تصدر باللغتين العربية والتركية. ثم ظهرت مطبعتان أحدهما كانت في قصر الإمام، أما الثانية فهي تابعة لإدارة المعارف، وربما يعود تأخر طباعة الكتاب في هذا البلد إلى كون طلبة العلم هم الذين كانوا يستنسخون الكتب والمخطوطات بأنفسهم، هذا وقد ظل اليمنيون إلى الستينات من هذا القرن يعتمدون اعتمادًا شبه كلي على مطابع القاهرة، أما اليوم فإن فن الطباعة يشهد تطورًا في نطاق ملامح التطور العام في هذا القطر.

أما في فلسطين فإن المطابع العربية لم تظهر إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت مطابع صغيرة تهتم بطبع الكتب المسيحية والإسلامية والكتب الأدبية العربية، ونتيجة لعدم الاستقرار الذي شهدته فلسطين منذ الحرب العالمية الأولى، فإن الطباعة تخلفت عن مثيلاتها في بقية الأقطار العربية المجاورة.

أما في المملكة العربية السعودية، التي كانت تابعة - كمعظم البلاد العربية - للإمبراطورية العثمانية، فإن الطباعة ظهرت بها خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتحديدًا في سنة ١٨٨٢م، حيث استحضرت

الحكومة إلى الحجاز مطبعة تُدار بالقدم، وأطلق عليها إذ ذاك «مطبعة ولاية الحجاز» (انظر جريدة أم القرى العدد: ٣١١، ص٥، ١٣٤٧هـ)، وكانت هذه المطبعة تطبع جريدة «الحجاز»، وقد قدّمت خدمات جليلة، في سبيل دفع المستوى الثقافي والعلمي رغم الظروف والملابسات التي كانت تكتنف الحجاز سياسياً. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى نودي بالشريف حسين ملكًا على الحجاز فأسس في سنة ١٩١٩م مطبعة صغيرة في مكة أُحضرت من القاهرة. وطبع بها جريدته الدينية السياسية الاجتماعية «القبلة».

وعندما استتب الأمر للملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - أطلق على هذه المطبعة اسم «أم القرى»، وقد اهتمت هذه المؤسسة بالفن المطبعي فأحضرت بعض الخبراء لتعليم أهل الحجاز هذا الفن. كما أرسلت في سنة ١٩٣٧م وكذا في سنة ١٩٣٨م بعثة مؤلفة من سبعة عشر شخصًا للتخصص في الفن المطبعي إلى مطبعة بولاق المصرية. كما سميت مطبعة أم القرى في سنة ١٩٣٧ «مطبعة الحكومة» بناء على تعليمات وزارة المالية. وقامت المطبعة المذكورة بطبع صحيفة الحجاز، وصحيفة شمس الحقيقة اليومية، وكذا مجلة الحج، إضافة إلى المطبوعات الحكومية والقوانين. ويمكن القول إن المطابع تركزت في الحجاز ومكة المكرمة والمدينة المنورة، التي أسهمت في طبع الدوريات والكتب الدينية والأدبية. وقد كانت الكتب المطبوعة تحتوي على الأخطاء المطبعية ولم يكن يخصص لها صفحة بالعنوان، وإنما كان اسم المؤلف وعنوان الكتاب يردان في المقدمة، كما يرد اسم الناشر أو المطبعة وسنة النشر في آخر الكتاب.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية شهدت المملكة العربية السعودية تطوراً كبيراً في الميادين الثقافية والاقتصادية والاجتماعية مما تبعه بالضرورة انتشار المطابع في المملكة، وفي سنة ١٩٥٢م أنشئت مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، وقد زُوّدت بأحدث الطابعات وآلات التنفيذ المعروفة باللينوتيب. وقد قامت بطبع مجموعة من الدوريات والمطبوعات التجارية والحكومية، إضافة إلى ذلك وجدت عدة مطابع خاصة في مدينة جدة.

هذا؛ وقد تقلص فيما بعد استيراد الكتاب العربي نظرًا للتطور الكبير الذي شهدته المملكة في مجال الفن الطباعي، وهي تقف اليوم في مصاف الدول المتقدمة والرائدة في ميدان النشر.

أما بدولة الكويت فقد تأخر ظهور الطباعة، حيث تأسست أول مطبعة كويتية سنة ١٩٤٧م وسميت مطبعة المعارف، وكان يتقاسم ملكيتها كل من دائرة المعارف والسيد أحمد البشير، ثم انتقلت ملكيتها فيما بعد لأحد المواطنين الكويتيين.

وقد أصدرت هذه المطبعة أول مجلة كويتية وهي «الكاظمة» التي كان يصدرها أحمد زين السقاف، ثم ظهرت بعد ذلك مطبعة حكومة الكويت ومطبعة الطلبة ومطبعة السلام، وقد حرصت الكويت على خدمة الثقافة منذ قيام الدولة لذلك استدعت رجال العلم والفكر والأدب من كل الأقطار العربية، كما أصدرت صحيفة «الكويت اليوم» وأرسلت البعثات للتخصص في مجال الفن الطباعي، ويمكن القول إن السعودية والكويت يتشابهان إلى حد كبير في خلفية الحرص على تثقيف الشعب وخدمة العلم، لذلك فإن الطباعة متقدمة بهما اليوم، وقد وصلت إلى مستويات عالمية وبجدارة.

أما الطباعة بسلطنة عمان فقد ظهرت - حسب بعض الدارسين - خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد كان في البداية بعض الموسرين العمانيين يرسلون الكتب إلى الهند ومصر لتطبع على نفقتهم الخاصة. وفي سنة ١٣٠٥هـ تأسست المطبعة السلطانية في جزيرة زنجبار، التي كانت حينذاك ولاية عُمانية،

حيث كان يسكنها آلاف العمانيين، وطبعت هذه المطبعة عشرات الكتب العمانية، وكانت أول صحيفة ظهرت هي صحيفة «**الوطن**»، التي أصدرها نصر بن محمد الطائي، ثم تلتها جريدة «**عمان**» التي أصدرتها وزارة الإعلام؛ وتؤدي الآن مكتبة «الاستقامة» دوراً ملحوظاً في طباعة الكتب والمجلات، والواقع أن عبء الطباعة في عُمان يقع على الجهات الرسمية خاصة وزارة التراث القومي والثقافة، التي تقوم بطبع كتب التراث والمخطوطات، ومن أهم تلك الكتب التي أصدرتها: كتاب (**الخليج: بلدانه وقبائله**) وكتاب (**حصاد ندوة الدراسات العمانية**).

الفصل الثامن – تاريخ نشر الكتاب العربي في الجزائر: ظهرت الطباعة في الجزائر في منتصف القرن التاسع عشر، على إثر دخول الاستعمار الفرنسي، حيث ظهرت مطبعة قسنطينة الحجرية، التي نشرت كتاب «**استيلاء الترك على قسنطينة**»، وقد أدرك الاستعمار الفرنسي أهمية الدعاية في التأثير على الأهالي واستمالتهم، وللوصول إلى هذه الغاية حاول الفرنسيون إحلال الثقافة الفرنسية مكان الثقافة العربية الإسلامية بواسطة ترسيخ اللغة الفرنسية واضطهاد اللغة العربية، ومسخ الشخصية الجزائرية المسلمة، لذلك ظهرت أول مطبعة فرنسية في الجزائر في عهد الملك فيليب، التي طبعت فيما بعد صحيفة «**المبشر**» باللغتين العربية والفرنسية، وكان الغرض من ذلك كما زعم الملك الفرنسي أنه يكون لأهل الجزائر صحيفة خاصة بهم ترشدهم إلى سبيل العلم والحضارة والزراعة والتجارة والصناعة، وقد نشطت الطباعة نسبياً في بداية الاحتلال الفرنسي مقارنة بما كانت عليه قبل الاحتلال من حيث أدوات الطباعة والحروف وكمية النسخ المطبوعة.

أما المطابع التي قامت بطبع الكتاب العربي في الجزائر، فهي:

١ – مطبعة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن أهم منشوراتها: كتاب «**سؤال وجواب**» للشيخ عبدالحميد بن باديس، والجزء الأول من كتاب «**تاريخ الجزائر**» للشيخ محمد مبارك الميلي، وكتاب «**القواصم والقواضم**» للشيخ العربي التبسي، هذا بالإضافة إلى نشر الجرائد والمنشورات العامة، وقد أدّت هذه المطبعة دوراً رائداً في نشر الوعي السياسي بين مختلف فئات الشعب الجزائري.

٢ – مطبعة فونتانة واخوانه، ومن أهم منشوراتها: كتاب «**الكمال**» للشيخ محمد مصطفى خوجة، وكذا كتاب «**تنوير الأذهان في الحث على التحرير وحفظ الأبدان**» للمؤلف ذاته.

٣ – مطبعة أحمد بن مراد التركي، ومن أهم منشوراتها: كتاب «**البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**» تأليف: ابن مريم التلمساني، وكتاب «**عنوان الدراية**» تأليف: القيريني، وكتاب «**الجواهر الحسان في تفسير القرآن**» للشيخ عبدالرحمن الثعالبي.

٤ – مطبعة الشيخ «أبو اليقظان»، ومن أهم منشوراتها: كتاب «**الجزائر**» لأحمد توفيق المدني، وكذا كتاب «**تاريخ الجزائر العام**» لعبدالرحمن الجيلالي، وكتاب «**المسلمون في صقلية**»، بالإضافة إلى بعض الجرائد والمجلات.

هذا، ويلاحظ أن أغلب الكتب التي طبعت خلال هذه الفترة هي كتب دينية وأدبية وتاريخية، كما أنه لا أثر يذكر للمسيحيين أو اليهود في مجال النشر، كما هو الأمر بالنسبة لبعض الدول العربية والمشرقية، لذلك فقد كانت المراقبة شديدة من قبل الاستعمار الفرنسي، الذي منع نشر كل مايتعارض ومصالحه، ولم ينج من ذلك إلا القليل الذي طبع سراً، وعلى الرغم من ذلك فقد أدّت تلك المطبوعات دوراً معتبراً في ربط الجزائريين بعقيدتهم ولغتهم وشخصيتهم الحضارية، وأسهمت في رفع المستوى الثقافي والاجتماعي للكثير من الفئات الشعبية، أما في مرحلة

الاستقلال فقد ظهرت بعض المطابع ودور النشر، أهمها:

١ - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة ١٩٦٦م، وكان من أهدافها: احتكار النشر التجاري، واحتكار الاستيراد من الخارج، والتوزيع والنشر على المستوى الوطني. وقد قامت الشركة فيما بين ١٩٦٦ و ١٩٨٠ بطبع ٥٦٥ عنوانًا باللغتين العربية والفرنسية، من بينها ٢٩٧ عنوانًا باللغة العربية، و ٢٦٨ عنوانًا باللغة الفرنسية.

٢ - ديوان المطبوعات الجامعية: أنشئ سنة ١٩٧٣م، وكان غرضه الرئيس هو تأمين المطبوعات للجامعات الجزائرية المنتشرة عبر التراب الوطني، وقد بلغ عدد العناوين التي قام بطبعها منذ الشروع في الإنتاج سنة ١٩٧٥ حتى سنة ١٩٨١ حوالي ٤٤٨ عنوانًا في مختلف أنواع المعرفة باللغتين العربية والفرنسية.

٣ - مركب الرغاية للطباعة: أنجز هذا المركب سنة ١٩٧٥ ولكنه دخل الإنتاج سنة ١٩٧٨، وكانت قدرة الإنتاج لهذا المركب في مرحلته الأولى سنوياً ٧ ملايين نسخة من الكتب، و ٨ ملايين نسخة من الدوريات، و ١٥ مليون نسخة من المواد الأخرى.

وبالإضافة إلى هذه المطابع فقد انتشرت بعض المطابع ودور النشر الخاصة مثل البعث، والشهاب، والهدى... إلخ، وصفوة القول إن الطباعة في الجزائر خطت خطوات كبيرة، لكنها لاتزال تعاني من عدة مشكلات أهمها:

- مازال إخراج الكتاب العربي دون المستوى المطلوب.
- المشكل التكويني للإطارات.
- مشكلة المؤلفين سواء من حيث التعويض المادي، أو من حيث التأخر الفادح والمبالغ فيه في طبع المخطوط.
- عدم مراعاة القياس العالمي من حيث عدد الفنيين الذين يعملون على آلة الطباعة.
- النقص في المواد الأولية كالورق وبعض المواد الأخرى.

الفصل التاسع - تناول المؤلف في هذا الفصل الأخير **تاريخ طباعة الكتاب العربي في تونس**، فقد كان هذا القطر إحدى الولايات العثمانية، ولكنه كان يعيش وضعًا متردّيًا بسبب السرقات والرشوة والتبذير، كما أنه كان يعيش في عزلة عن العالم الخارجي، لذا أراد أحد الوزراء الغيورين هو «خير الدين» النهوض بالوضع الثقافي في البلاد، فأقام مدرسة عصرية هي «الصادقية»؛ وذلك في سنة ١٨٧٥م، كما قام بتنظيم التعليم الديني بجامع الزيتونة. ثم إن هذا الوزير استدعى المستشرق الفرنسي «كولبتي» للإشراف على المطبعة الحكومية وتحرير جريدة «الرائد التونسي» وذلك سنة ١٨٦١م، وقد قامت هذه المطبعة بنشر العديد من الكتب خاصة تلك التي تحتاج إليها المعاهد الزيتونية، وكان أهمها مايلي:

- **الفروق للقرافي**، و**الموافقات للشاطبي**، وكلاهما في أصول الفقه.
- **موطأ الإمام مالك**، في الفقه.
- **شرح الأشموني على الألفية**، في النحو.
- **عقيدة السيوطي**، في علم التوحيد.

وبعد الحماية الفرنسية على تونس سنة ١٨٨١م أُخضع جهاز النشر للإدارة الفرنسية التي لم تسمح إلاّ بنشر مايخدم مصلحة المستعمر وأغراضه، مثل كتب: **«سلوك الإبريز في مسالك باريز»**، **«الونس في باريس»**، **«الاستطاعات الباريسية»**.

لكن ورغم ذلك فقد ظهر مع بداية القرن العشرين في تونس جيل جديد تحصّل على ثقافة مزدوجة، وكان هذا الجيل جاداً في النهوض بالثقافة، وعليه فقد نشأت عدة دور نشر وطباعة، أهمها:

- دار علي بن محمد عثمان، ومن أهم منشوراتها كتاب **«نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»**.
- المكتبة العلمية، ومن أهم منشوراتها كتاب **«شرح**

حدود ابن عرفة الفقهية».

- مكتبة النهضة، ومن أهم منشوراتها كتاب «**المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس**» لابن دينار.

- دار العرب للطبع والنشر، التي أسسها الأديب الناقد زين العابدين السنوسي، وقامت بطبع العديد من الكتب المهمة منها: «**قرطاجنة**» للمؤرخ أحمد توفيق المدني، و «**موجز تاريخ بلاد الجزائر**» للكاتب والمؤرخ التونسي الشهير المرحوم عثمان الكعاك.

- شركة المطبوعات الإسلامية، ومن أهم منشوراتها، كتاب «**الرياض في أخبار القاضي عياض**».

- شركة مطبعة الاتحاد، ومن أهم منشوراتها، «**تونس في جهادها.. أو مذكرات سياسي**» تأليف محمد الصالح جراد.

هذا إلى جانب الكثير من المطابع ودور النشر الأخرى مثل شركة الشمال الإفريقي والمطبعة الأهلية وغيرهما؛ وصفوة القول إن المثقفين التونسيين أثناء فترة الحماية الفرنسية قاموا بنشاط ثقافي مميز، مما كان له الأثر الطيب بعد جلاء المستعمر، خاصة فيما يتعلق بمستوى اللغة العربية، كما أشرفت الحكومة - بعد الاستقلال - على دور الطباعة فظهر تحسن في إخراج الكتاب العربي من حيث الشكل والتجليد، كما أن الكتاب التونسي أصبح رائجًا لاسيما في بعض البلاد العربية المجاورة أو القريبة، ومن الخطوات المهمة أيضًا إقدام بعض دور الطباعة التونسية على النشر المشترك، مثل مطبوعات: الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتب الجزائرية.

خاتمة الكتاب:

ضَمَّن المؤلف خاتمة كتابه بعض أهم المشكلات التي لاتزال تقف عائقًا في وجه تقدم الفن الطباعي العربي، مثل: مشكلات الاستيراد والتصدير، وضعف القوانين الخاصة بحماية حقوق المؤلفين، ونقص الأيدي الفنية المدربة، وهجرة بعضها من دول لأخرى؛... إلخ، ثم أتبع ذلك بتقديم بعض المقترحات، وكان أهمها:

- ضرورة إعادة النظر في القوانين الخاصة بحماية حقوق المؤلفين والمشاركين المعمول بها في البلاد العربية.

- بما أن الكتاب العربي يعاني من عدم حرية الحركة بين الأقطار العربية ينبغي رفع تلك القيود الجمركية والسياسية خاصة فيما يتعلق بالكتب العلمية، وكتب الأطفال.

- إنشاء دور نشر عربية مشتركة متخصصة، كدور نشر للتراث، ودور نشر أدبية، ودور نشر للعلوم والتقنية، ودور نشر للأطفال، لأن هذا النوع من النشر المشترك والمتخصص يساعد على إثراء اللغة العربية بالمصطلحات العلمية والأدبية وتوحيدها. وكذا توحيد وتقريب جهود الباحثين والمؤلفين والعلماء والمترجمين العرب، والتخفيف من عناء البحث المنفرد.

- يُلاحظ تقصيرًا بيّنًا في وسائل الإعلام بخصوص التعريف بالكتاب العربي، وعليه فحبذا لو تكون هناك حصص خاصة بالكتاب والتعريف به في وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، وعقد الندوات والمحاضرات عن دور الكتاب في التنمية الوطنية والتطور العلمي... إلخ.

لقد بذل محمد سلمان علي جهدًا مشكورًا في هذا الكتاب، ونجح في تعريف القارئ بتاريخ طباعة الكتاب العربي، وأهم المراحل التي مر بها، والمشكلات والعوائق التي اعترضته، في معظم البلاد العربية.. ولو أنه لم يغفل - وإن لم يكن ذلك بمقدوره على مايبدو - بعض البلاد العربية والإسلامية الأخرى مثل: قطر والمغرب وإيران والبحرين... إلخ، لكان عمله هذا على غير هذا النحو، وإنما سيكون جهدًا علميًا توثيقيًا رائعًا، ولعل الأخ المؤلف يستدرك ذلك في الطبعة القادمة من الكتاب، بعد أن تتوافر لديه المادة العلمية الضرورية التي أشار إلى افتقادها بالنسبة لبعض الأقطار؛ حتى يخرج عمله في صورة ثانية أكثر استيعابًا وإحاطةً بمسار تاريخ طباعة الكتاب العربي ونشره.

الخطاب العربي المعاصر

قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة (١٩٧٨ - ١٩٨٧) لفادي إسماعيل

فوزية محمد بريون
استاذ مساعد
بقسم اللغة العربية
جامعة الملك سعود - الرياض

إسماعيل، فادي / الخطاب العربي المعاصر قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة (١٩٧٨ - ١٩٨٧م) .- واشنطن : المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م .- ١٧٦ص .

الكتاب في الأصل أطروحة لنيل درجة الماجستير من مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط بكلية الآداب - الجامعة الأمريكية ببيروت . وهو يضم أربعة فصول تسبقها خمس وعشرون صفحة بين تصدير وتمهيد وتلخيص ومقدمة، بحيث يصل عدد صفحات الكتاب إلى مئة وست وسبعين صفحة من الحجم المتوسط . كتب التصدير طه جابر العلواني مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي (١)، منوّهًا بجهود الباحث وحرصه على أن يضع أمام النخبة العربية مجموعة من الحقائق المهمة التي تتعلق بمفاهيم النهضة ومنهجها وإشكاليتها، مؤكدًا "أن في الرسالة نماذجًا يحتذى بها للمراجعة النقدية اللازمة لمفاهيم تجربة النهضة والتقدم في المنطقة العربية" (٢). وبينما كان التلخيص تكثيفًا لأهم أفكار الأطروحة ونتائجها - حسب العرف الجامعي - كان التمهيد يحدد مجال الدراسة والإشكاليات التي تتمحور حول سؤال شكيب أرسلان القديم الحديث: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ أما المقدمة فتبين الحقبة التاريخية التي اعتمدتها الدراسة (١٩٧٨ - ١٩٨٧م)، وتبرر لاختيارها بأنها الفترة التي تبلور فيها الخطاب الفكري النقدي، كما تدرج مصادرها ومراجعها التي تتبناها كعينة للدراسة بوصفها تمثل جزءًا مهمًا من تاريخ الفكر العربي المعاصر .

والكتاب محاولة جيدة لإعادة طرح سؤال أرسلان المذكور، كما يضيف للسؤال شقًا آخر، أو يعيد صياغته على نحو جديد هو : لماذا بعد أكثر من مئة عام من محاولات النهوض والتقدم واللحاق بالعصر، لم نلحق به ولم نتقدم ؟ بل إن الكاتب حرص على تغيير السؤال التيئيسي : أين يسير المجتمع ؟ إلى سؤال معرفي تنقيبي هو : ما النموذج الذي يسير نحوه هذا المجتمع ؟ ومحاولة الطرح وإعادة الطرح هذه لاتعتمد على تنظير من لدن الباحث، وإنما على مدخله في استقراء آراء المفكرين العرب ذوي التوجهات المختلفة، وتحليل مداخلاتهم ومساجلاتهم حول القضايا التي صاحبت مشاريع النهضة، والأفكار التي تكونت في إطار محاولات تلافي أزمة الأمة التاريخية التي يتضح وجود إجماع عليها . أي إنها قراءة في الفكر العربي المعاصر تقوم على فرز وتصنيف وتفسير تيارات متنوعة ينتظمها خيط واحد هو إشكالية التقدم .

في الفصل الأول الذي يتكون من ثلاثة عناوين هي : **في الخطاب الفكري المعاصر - في نمط قراءتنا له - كيف تقرأ المفاهيم في الفكر المعاصر**، يحدد

الباحث فترة ما بعد هزيمة ٦٧ كمناخ لظهور ما أسماه «المرحلة النقدية المعرفية» التي عرّفت نفسها «بأنها الأرقى لأنها اكتشاف للمستوى المعرفي التاريخي الأبستمولوجي للفكر والثقافة العربي، وتطمح إلى تأسيس قراءات جديدة نقدية تفكيكية تحليلية للواقع العربي مجتمعًا وسلطة وثقافة» (٣). لكنها فشلت في تحديد أسباب الهزيمة والتخلف، وهوّمت حول تعبيرات مشوشة مثل فقدان الوعي التاريخي، الرجعية، الظلامية، العصور الوسطى، الجمود، الخرافة ... إلى آخر قائمة الاتهامات التي تصيب، كما قال برهان غليون «الدولة والمجتمع، المخطئ والبريء، الشعب والحكومة، المثقف والأمي، الرئيس والمرؤوس». ورغم هذا الفشل، فقد ظل هؤلاء المفكرون ممثلين للفكر الطليعي الذي نافح عن مجموعة من القضايا الكبرى التي شغلت العالم العربي حتى منتصف الثمانينات، حيث تميز الواقع العربي بسيطرة النخب القائدة للمجتمع، وفرض أيديولوجيتها التحديثية، ومفاهيمها وسياساتها وخياراتها الفكرية والسياسية والاقتصادية، وفرض خططها للتقدم والتنمية والتحضر. وقد أنتجت هذه السياسة ما يدعوه الباحث بالجرائم الفكرية، ويطلق عليه مصطلح الفتنة «فتنة الحداثة والتقدم والنهضة» التي تتميز بأنها «فقدان كل المعايير والمقاييس والمرجعيات والإجماعات» (٤).

تميز عصر الهضة العربية في بدايته بظهور فكر ليبرالي متأثر بأفكار عصر التنوير الأوربي الذي أحدث القطيعة بين الدين والمجتمع، ففصل بين ما أسماه بالمجتمع اللاهوتي والمجتمع العلماني. أكد الفكر الليبرالي العربي الجديد على مبادئ المساواة والعدل والحرية والحق الطبيعي والحكم المدني، دون مناقشة الدلالات الفلسفية المتضمنة في هذه المفاهيم التي تخلقت في ظروف زمانية ومكانية وحضارية خاصة. وقد قام المنهج الليبرالي على أساس ما يسمى بالقانون الطبيعي الذي يمكن تلخيصه بأن مصلحة المجتمع ككل تتحقق «حتمًا» من خلال عمل كل فرد فيه على تحقيق مصلحته الخاصة، وقد تبنت هذا المنهج ثلاث مدارس، هي:

١- المدرسة العلمانية الإسلامية، وروادها محمد حسين هيكل، طه حسين، أحمد لطفي السيد وغيرهم.
٢- المدرسة المنادية بالتغريب الكامل والرافضة لروح التوفيق الإسلامي (وكان الأجدر تسميتها بالتغريبية المسيحية) وروادها سلامة موسى، وشلبي الشميل، وفرح أنطون.
٣- المدرسة القومية ويمثلها ساطع الحصري، وقسطنطين زريق.

اعتقد رواد هذه المدرسة بأنه إذا تحقق التمثيل النيابي، وانتشر التعليم، وأرسي التصنيع، وأصلح وضع المرأة، أدى ذلك تلقائيًا إلى النهضة والتقدم. ويرى الكتاب أن هذه التلقائية قد أوجدت ثغرة حالت دون أن تحدد القوانين الاجتماعية التي تتحكم في عملية النهضة. كما أدت إلى القفز على حقيقة أساسية، وهي أن لهذه القوانين شروطًا تاريخية سنتها قوى اجتماعية وظروف موضوعية لا تسمح بانتقالها من بيئتها. وعليه فقد أدى اقتباس المنهج الليبرالي الغربي إلى خلط بين أنظمة معرفية مختلفة، وأحدث انفصامًا هائلاً بين هذا الفكر والسياق الواقعي للأمة. إن مشكلة هذا الفكر - كما يبرزها البحث - تكمن في جهل المفكر الليبرالي بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للغرب. فهو إنما يتناول أفكارًا نزعت من سياقها التاريخي والمعرفي.

وفي المقابل وجد المفكر الإسلامي نفسه يستعمل المفاهيم الغربية التي انفصلت عن أية دلالة دينية، دون

أن يوجد لها مرادفًا إسلاميًا. ومن هنا حدث سوء التفاهم بين مفاهيم مثل الديمقراطية/ الشورى، نواب الأمة/ أهل الحل والعقد، حرية الفكر/ الاجتهاد (٥). وكما يلاحظ محمد عابد الجابري «هكذا يلتقي السلفي مع الليبرالي العربي على صعيد واحد، فكلاهما يرى النهضة في القفز على التاريخ لا في صنعه. الأول يراها في العودة إلى طريقة السلف قبل ظهور الخلاف، والثاني يراها في العودة إلى المبادئ الأوربية. ولعل المشكلة هنا أكثر تعقيدًا لأن هذا الأخير يحدد النهضة بأنها «مركبات ذهنية تنتمي إلى الحاضر الأوربي وجدها خارج تاريخه جاهزة».

ورغم أن البحث يبين في البداية أنه يهدف إلى الموازنة بين نموذجين حضاريين هما النموذج الغربي. (الذي أسماه بالوافد أو الغازي)، والنموذج العربي الإسلامي (الذي أسماه بالموروث أو التقليدي)، إلا أنه ركز على النموذج الأول مفصلاً فيه مكتفيًا بالإشارة إلى أن الثاني قد «أجبر على الانزواء والتقهقر، وفقد دورته التدريبية ثم الاقتصادية وانطوى على نفسه في المجتمع (أي الدولة) (. . .) منغلقًا مدافعًا على وجوده بعد أن تراجع عن خط دفاعه كثقافة شعبية مغلوبة، وكجماعة وثقافة وأيديولوجية المغلوبين».

ورغم أن البحث أشار فيما بعد إلى ما أسماه بمجتمع المغلوبين وثقافتهم، إلا أنه لم يبرزهم كنموذج صاحب رؤية حضارية، ولم يلق الضوء على فكرهم وآرائهم ومساجلاتهم حول إشكاليات النهضة.

تشكلت عمليات النهضة والتقدم والحداثة - في رأي الباحث - بتفاعل ثلاث مفاصل رئيسة هي المجتمع والدولة والغرب، وتتم تلك التفاعلات في ثنائيات ثلاثة هي: الدولة - المجتمع، الدولة - الغرب، المجتمع - الغرب.

نبّه وجود الغرب الآليات الدفاعية للمجتمع بوصفه يمثل خطرًا خارجيًا. وعليه لجأ الناس إلى الماضي ليحتموا به، ثم عمدوا إلى تضخيمه وتمجيده حتى صار دور العوامل الداخلية للنهضة ثانويًا. ومن جهة أخرى صارت الثقافة العربية تستقي قيمها من ثقافة أخرى لا صلة لها بها، متجاهلة أن الثقافات - كما أكد غليون - شخصيات متميزة لا يمكن الخلط بينها (٦). وأن مشاريع النهضة ما هي إلا رؤى لكيفية الخروج من إشكاليات معينة، ولا يمكن استعارتها؛ بل يجب إبداعها من داخل السياق الثقافي والحضاري.

متى بدأت الثقافة العربية تستقي من غيرها؟ هذا ما يبحثه الفصل الثالث الذي يحمل عنوان **«في التجربة التاريخية»**، حينما يناقش موضوع المجتمع والدولة لحظة الاصطدام بالغرب، بدءًا من تجربة محمد علي الذي أدرك أن الحداثة مشروع متكامل، فأنشأ دولة قوية وجيشًا ضخمًا وأسطولاً قادرًا على مواجهة أساطيل الدول الكبرى، فكان صاحب الفضل في إدخال النهضة كمشروع عملي للدولة والمجتمع حتى دفع مصر إلى عصر التصنيع.

لكن محمد علي وعى دروس ميكيافيلي وتفوق عليه، فسارع إلى تحطيم القوة التي رفعته إلى الحكم وقضى على بدايات المشاركة الشعبية التي تمثلت في عمر مكرم، وقضى على دور الأزهر الاجتماعي، واستبعد المؤسسة الدينية عن الدولة، وكون نخبة خاصة منفصلة عن الشعب، ثم اجتهد في فرض تحديث قسري تديره سلطة مركزية منفصلة عن الجماعة، استخدم فيها الأتراك والأكراد والشركس والأرمن والأوربيين. ويشير الباحث إلى أن هذا النوع من تجميع قوة المجتمع العسكرية والإنتاجية والتنظيمية في مركز واحد كان يتم لأول مرة في تاريخ

الدولة الإسلامية وسلطاتها المختلفة. وهو شكل من أشكال تنظيم المجتمع بالعنف من خارجه، أي من رأسه المهيمن (الدولة)، وهو نموذج غربي وافد. ولهذا فقد اعتمدت جهود محمد علي النهضوية إلحاق الثقافة بالدولة، وضرب نظام المدارس الإسلامية، وإضعاف طبقة العلماء، والتدخل في نظام الأوقاف، وباختصار، فقد وضع محمد علي يده على كل شيء، فوقع أسيراً لمنطق النموذج الغربي في حين أنه استهدف مواجهة تحدياته (٧).

إن سبب فشل مشروع محمد علي هو أن التحديث لم يكن خيار الجمهور العربي المسلم في مصر؛ بل لم يكن للإصلاح والنهضة معنى واحد بالنسبة للسلطان والرعية، إذ كان يعني بالنسبة للأول تسليح الجيش وتقوية الدولة، بينما كان يعني للرّعية الخروج من الانحطاط، وإنهاء الاستبداد والعودة إلى العمل والشّورى.

وما هو دور الثقافة في هذا الإطار؟

كان رفاعة الطهطاوي ممثلاً للنخبة الحديثة و «الحليف الثقافي» لسياسة محمد علي. فقد أدى دور الباحث عن مسوغات فقهية وسياسية لخيارات التجربة التحديثية التي ألحق بها ولم يكن شريكاً فيها، فظلت آراؤه تدور حول أن «الملك خليفة الله في أرضه وأن حسابه على ربّه، فليس عليه في فعله مسؤولية لأحد من رعاياه» (٨). وهكذا أدى الطهطاوي دوراً مغايراً لدور الجبرتي الذي مثل الذاكرة الثقافية للشعب المغلوب وظل خارج الدولة. بينما استمر زميله مؤسساً لتيار التحديث والعقلانية الغربية دون أن يمتلك القدرة على استيعاب الثقافة الأوربية في إطارها التاريخي المعرفي، فساعد على أن ينفّذ التمدن والتقدم على حساب الوجود السياسي والاجتماعي للمغلوبين.

كان هؤلاء المغلوبين وقود الانتفاضات التي قاومت الغرب ورفضته، فبعد أن تصدى العلماء والمجتمع لحملة نابليون، ظهرت حركات الأمير عبدالقادر والمقراني والسنوسيين وعبدالكريم الخطابي وعمر المختار، وتفجرت الانتفاضات الشعبية في شمال الهند وآسيا الصغرى وجامع الزيتونة والعراق وإيران. فكانت هذه هي المقاومة الأولى التي لم تحقق أهدافها كاملة، لكنها حالت دون أن يدمر الغرب هويتها ويحولها إلى مدنيات غابرة. وقد تبنت هذه المقاومة وشحذتها مقولة الأفغاني «إن التمدن الحقيقي مكافئ للدين» مؤكدة أن العلاقة السياسية والعسكرية بين الإسلام والغرب - وليست الثقافية لم تكن متكافئة. وهنا لجأ الغالب (الغرب) إلى تقديم صيغة للصلح والتفاهم والتماثل، فأخرج كثيراً من النخبة من صفوف الأغلبية وموقفها لتتصالح مع المدنية الغربية بدرجات متفاوتة (٩).

بعد الحرب العالمية الثانية ظهر ما أسماه الباحث بالمقاومة الثانية التي تمثلت في شكل حركات وطنية واستقلالية قادتها الفئات الحديثة التي تربت في جو السيطرة الأوربية وأجهزة حكمها ومؤسساتها؛ بل ربما كانت ثمرة إعداد دقيق لها، حيث اعتمدت منظومة الآخر (الغرب) في الرد عليه، وكما يقول وضاح شرارة: «مع حركات المقاومة الثانية بدا أن المجتمعات العربية دخلت دخولاً نهائياً في التاريخ الحديث: أليس ما تطالب به نخبها هو (اقتسام الأوربة)؟ لقد سمي الاستيلاء على أجهزة الدولة استقلالاً سياسياً» (١٠).

وهكذا ورثت النخبة الحديثة التكوين الاستعماري، ولخصت مشروعها السياسي والاجتماعي في السيطرة المباشرة على المجتمع بتوحيد آلتي الحكم وتملّك فائض الإنتاج، فسنّت الدساتير

وأقيمت أشباه الدول وغابت الثورات الشعبية. وبعد أن كان السؤال الذي طرحته المقاومة الأولى كيف نطرد الإمبريالية؟ صار السؤال الأساسي كيف نسرع في بناء دولة حديثة؟ أي كيف يمكن تحسين شروط انخراطنا في نادي الإمبريالية الدولي؟

يشير البحث إلى أن التمييز بين الديني والسياسي والحضاري كان في الأساس استراتيجية الاستعمار التي جعلت أيديولوجية الحداثة العربية تنتصر حين قدمت نفسها عبر العلم والديمقراطية والتقنية كثمرات جاهزة، ففتنت مثقفي عصر النهضة حتى اختلطت عليهم معايير الانتماء والانتقاء، والقبول والرفض. مما أدى إلى مزيد من الارتباك الذي دفع عملية التغريب إلى إبعاد الإسلام عن السياسة والقانون وتبديل العلاقات الاجتماعية والثقافية المرتكزة على العقيدة. وهكذا صارت الغلبة العسكرية غلبة حضارية شاملة. لكن آليات الدفاع النفسي والثقافي شكلت - مرة أخرى - رد فعل الجماعة الذي تمثل في المحافظة على الحد الأدنى من الفعالية لضمان تمسك المجتمع ووحدته، فظلت الفرائض الدينية والعبادات والممارسات الإسلامية، وهو ما أسماه المتغربون بـ «التقليد الأصولي» و«الثبات» و«التقليد الجامد»، شكلاً من أشكال المقاومة في مواجهة التفسخ.

هنا وقع الانفصال الأول بين الدولة والمجتمع. فأفقد انزواء الشرع عن السياسة الاجتماع الإسلامي مركزه، وظل يقاوم منكفئًا في الأرياف والأحياء الشعبية، وصارت النخب المتكونة في المدن تمثل التيار التوفيقي حينًا وتيار الاندماج الكامل حينا آخر. ولم يعد التغريب يتم وفق مجهود فردي أوتيارفكري غريب؛ بل تحول إلى ثقافة وأيديولوجية تحميها مؤسسات وسياسات ودول حتى تسرب إلى الجسم الإسلامي معلنًا تناقض الجماعة الواحدة. وظهرت جماعات هجينة تسبغ الاحترام والشرعية على عمليات الانسلاخ والتفكك.

وإلى جانب الفكر الديني قام العلماني، وإلى جانب التعليم الإسلامي قام الغربي، ومع الحكم الفردي قام النظام النيابي وإلى جانب النظم الإنتاجية الفردية والعائلية قام نظام الشركات والصناعات الحديثة، ومثل ذلك في المسكن والمأكل والملبس. وبذلك قام عصران مختلفان في مجتمع واحد - كما أشار طارق البشري - وصار الانكفاء على الماضي رمزًا للتمسك بالعدالة والأمن والوطنية، «في مواجهة خروج الدولة عن الدين عبر إلغاء الخلافة وتقليص الشرع وعزل العلماء، خرج المجتمع عن السياسة الحديثة وتعصب للذات (...) لقد استنبطت الجماعة هزيمة السياسة الشرعية وكبتتها في الدين».

يناقش الفصل الأخير المعنون بـ «تجربة الحداثة الراهنة: فتنة الحداثة» كيف صار بناء الدولة محوراً لنشاط المجتمع التاريخي الذي قاد إلى توكيل الدولة الحديثة بإعادة تشكيل المجتمع بأكمله بدعوى أن تلك الأداة الصالحة المستقدمة من خارج المجتمع المتخلف هي لتجديده وإخصابه ورقيه. وصار نموذج التقدم الغربي تقدمًا إنسانياً عالميًا ينبغي اللحاق به. وقد تميز «نموذج الحداثة» هذا بأيديولوجيته التي تقول إن للتاريخ مساراً واحداً، وما الاختلاف بين المجتمعات إلا هامش زمني يمكن عبوره عبر الجسر الغربي.

وصارت قوانين التغيير الاجتماعي مسلمة عالمية «علمية» لا تقبل الجدل، فالحداثة هي الحل السحري لفهم الواقع المتخلف وتطويره. وكل مجتمع تقليدي لابد أن يمر عبر مرحلة انتقالية إلى مرحلة الحداثة بصورة حتمية لا تأخذ في الحسبان العوامل الداخلية للتطور من

ثقافية وحضارية وقيمية. وقد بشّرت بهذه النظريات كتب غربية ظهرت في الخمسينات والستينات من هذا القرن مثل: زوال المجتمع التقليدي - مجتمع الإنجاز - مراحل النمو الاقتصادي.

وهكذا كان تكوّن المثقف النخبوي ملازمًا لخروجه عن مجتمع المغلوبين. ولكن ثقافته تظل تحاصره؛ لأنها مستمدة من خارج النموذج المعرفي الأصيل وخارج التاريخ المحلي. وقدحدث في الخمسينات، خلال فترة الاستقلال والبناء القومي، أن كانت «السياسة» مفهومًا مرادفًا للسلطة، فكان الخطاب العربي يدور حول مفهوم الثورة، وعمل الدولة الثوري في تغيير المجتمع، ودور النخب والطلائع الثورية. وكان هذا كله يتضمن الاعتراف بسلطة الثقافة الأوربية بينما كان هناك رفض صريح لهيمنة أوربا السياسية.

والحقيقة أن نظرية الحداثة قد جعلت الغرب ينجح في استبدال سيطرته العسكرية المباشرة بالنخب المحلية التي تبنت طوعًا مضامين هذه النظريات، وإن عارضت الغرب وهاجمته قولاً وفعلاً.

كان السؤال التاريخي لحركة النهضة في القرن التاسع عشر هو كيف نستوعب الحضارة من خلال التراث. وعندما لم يتحقق ذلك لم يجد الوعي العربي تفسيراً للانحطاط إلا في التراث؛ فأقصى تعبير النهضة وحل محله تعبير الحداثة التي لم تكن «مثل النهضة مشروعًا تاريخياً اجتماعياً له خصوصياته، ولكنها سياسة وممارسة يومية تهدف إلى تغيير كل بنى المجتمع للاندراج في العالمية والحضارة المادية» (١١).

لقد قسّمت الدولة الحديثة المجتمع إلى نخبة حاكمة أو «أقلية استراتيجية»، ونخبة أوسع تضم الفعاليات الفكرية والتربوية والإعلامية والاقتصادية، ثم هناك المجتمع الأهلي المغلوب الذي لم تتح له الحداثة الانخراط في أنظمتها ومؤسساتها. تصف هذه النخب المجتمع بالتقليدية والعجز والكسل والتخلف واللاعقلانية. أي إنه يشكل نموذجًا عكسيّاً للمثل الأرقى أو لنموذج الحداثة. وهكذا بقيت الحضارة هي الغرب، والمثل هو أوربا، والتاريخ هو تاريخها. وصار الوجود الغربي وجوداً شرعياً لأن نموذجه صار فهمًا داخلياً لإشكالية التخلف الذاتي.

ومن كل هذا يخلص البحث إلى أنه بعد عقود من وهم البناء القومي والدولة الحديثة لتجاوز التخلف واللحاق بالعصر كان ما تحقق هو العكس تمامًا: تبعية عالميةبدل السيادة الوطنية، وحكم استبدادي بدل الشرعية الداخلية، وتفكك اجتماعي وطني قومي بدل الوحدة والتنمية والتكامل. ذلك لأن نظرية التحديث اعتمدت على فرضية وجود عوامل ذاتية وموضوعية عربية أدت إلى التخلف، وما المرحلة الراهنة إلا درجة دنيا في سلم التطور سبق أن مرت بها المجتمعات الأوربية. والتحديث - حسب هذا التصور - حركة كونية ديناميكية ثورية لا يمكن صدّها، ولابد أن تكتسح المجتمعات العربية عاجلاً أو آجلاً.

الخلل في مشروع النهضة والتقدم والحداثة - إذاً - كان طبيعياً لأنه يقلد نموذجًا غربياً تخلق في بيئة ثقافية وحضارية مغايرة، مما أدى إلى ظهور أيديولوجية تحمل التراث بأشكاله الثقافية والاجتماعية والسلوكية والاقتصادية مسئولية التخلف ومعاندة التقدم، ففرضت تحديثًا قسرياً تحكمت فيه الدولة سلطة وقانونًا. وكان الناتج مانراه في عالمنا العربي من تناقض وتخبط وتبعية حتى صارت «الهوة التي تفصل المجتمع العربي اليوم عن النموذج الغربي الأرقى كحضارة، هي أعمق وأكبر بكثير من الهوة التي كانت تفصل مجتمع القرن التاسع عشر عن مثيله الغربي في الفترة ذاتها» (١٢).

توصل البحث في نهايته إلى إدانة النخب العربية والنموذج الذي تبنته في محاولة الخروج من دائرة التخلف، وإلى إخفاق العلمانية والعقلانية كجزء من إخفاق الحداثة في تجربة التقدم العربي(١٣). وقد طرح البحث الكثير من الأسئلة، كما أثار في ذهن القارئ الكثير مثلها. ومن الأسئلة التي ستظل مطروحة على بساط البحث الفكري لعقود قادمة: ما مواصفات النموذج الأصلي الذي تتحرك في إطاره الأغلبية الشعبية؟ وما التحويرات التي يحتاجها؟ ثم ما الخطط العملية للتعامل مع مشكلات العصر المتجددة في الزمان والمكان انطلاقًا من مرجعية حضارية حية ومتفاعلة؟.

أهمية الدراسة

* يعدّ الكتاب من الدراسات القليلة التي تسعى إلى تحليل الفكر العربي ونقده، والتي توصلت إلى إدانة مشاريع وسياسات التنمية والتقدم التي لم تنجح منذ قرن في أي من المجالات التي ادعت إمكان تغييرها. وتتمثل هذه الأهمية في نظري في أن البحث محضر تحقيق ومساءلة ومراجعة للفكر العربي الذي ظل منذ قبيل إلغاء الخلافة يناظر ويساجل حول إشكاليات النهضة والتخلف، بينما انخرطت الأجهزة السياسية في وضع وتنفيذ برامجها التنموية وفرضها، وهي في المحصلة إدانة للفريقين.
* إنها محاولة للنقد الذاتي، فالباحث ينتمي إلى النخبة المثقفة التي تحمل هموم أمتها. ورغم أنه من فئة المغلوبين - حسب تصنيفه - إلا أنه قد امتلك الأداة التي مكنته من مراجعة الأفكار المطروحة وتمحيصها، ومن تفكيكها وتركيبها بغية تسليط الضوء على سلبياتها لتجاوزها.
* إنها قراءة ملتزمة، بمعنى أن الباحث يتكلم حسب رؤية، خاصة أنه يصدر عن نموذج معرفي حضاري Paradigm، فهو يعترف منذ البداية بأنه غير محايد؛ بل إنه يرفض كل قراءة تاريخية تتزين بعبارات الحياد والموضوعية. والباحث يعلن أنه متعاطف إيجابياً مع الموضوع، طامح إلى تجسيد دور المثقفين الذين يتطلعون إلى مشروع حضاري جديد مستمد من ثقافة الجماهير وأيديولوجيتهم.
* إنها تحذر من أن يرضى مثقفو الأمة وولاة أمرها باستمرار الانفصال بين قيم الأمة وسياسة الدولة. وتحذر من الوقوع في شرك التغريب والانسلاخ تحت مظلة التطور والتقدم والانخراط في العصر. ولذلك فهي حلقة مهمة في حلقات النقد والمراجعة التي لا يقوم أي مشروع حضاري بمعزل عنها.
* إنها تدعو إلى مقاطعة الأصول المعرفية التي تتحكم في الحركة الفكرية العربية، وهي أصول غربية، عن منظومة الأمة الفكرية فرضتها غلبة الغرب الحضارية. كما أنها تدعو - في الوقت نفسه - إلى معالجة القطيعة المعرفية مع الهوية الحضارية والمرجعية الثقافية المشحونة بخصائص الذات.
* إنها تكشف وتدين شريحة عريضة ومؤثرة من النخبة العربية من حيث انفصالها عن جماهيرها، فهي تعيش جسدياً في مجتمعاتها، بينما تعيش فكرياً وعاطفياً في دول الغرب وعواصمه. "تستطيع أن تتفاهم فيما بينها من جهة وفيما بينها وبين المجتمعات الغربية من جهة أخرى، أكثر مما تتمتع به من ثقافة ونمط حياة ولغة مشتركة مع مجتمعاتها الأهلية".
* إنها تخلص إلى أن الهزيمة العربية هي هزيمة الخط التحديثي التغريبي، وهزيمة المنهج العقلاني العلماني، وهي بذلك هزيمة الأقلية (النخبة) وليست هزيمة الأغلبية. وهو تصور إيجابي مشحون بالفاعلية.

منهــج الدراســة

اعتمد البحث على ما أسماه بالعينة الفكرية للدراسة، وهي عبارة عن عينة مختارة - وليست عشوائية - من خطابات مفكرين ينتمون في الأغلب إلى الفكر القومي، بينما ينتمي بعضهم إلى الفكر اليساري من أمثال عبدالله العروي ومحمد عابد الجابري وحسن مرة وجورج طرابيشي. وقد اعتمد البحث المنهج التاريخي في تتبع تداول الخطاب حول إشكاليات النهضة وآثارها العملية. والكاتب لم يتقمص شخصية المؤرخ الذي يسجل الوقائع في تسلسلها الزمني، وإنما كان يستجوب هذا التاريخ ويعلل أحداثه بأدوات سسيولوجية تتعرض للوظائف والبنى والمواقف والأفكار مستخدمًا المنهج الجدلي الواقعي الذي ينطلق من الوقائع التاريخية والنصوص الفكرية مستجوبًا إياها، منتقدًا منطقها ومسلطًا الضوء على تناقضاتها، كما اتبع الكاتب الأسلوب التحليلي التركيبي إلى جانب الأسلوب التفكيكي. فالتحليلي - كما أوضح - كان يتناول القواعد والأنسقة بالشرح ليحدد في ضوئها أجزاء الإشكالية موضوع البحث؛ بينما يستعمل التركيبي في مقابلة الأجزاء المختلفة التي تبحث نقطة معينة، ثم تركيبها لإعادة صياغة بعض المفاهيم أو الوصول إلى تعليلات أو نتائج مغايرة أحيانًا.

مآخذ على الدراســة

يؤخذ على البحث أنه لم يعرف مصطلح الخطاب، وهو مصطلح استعمل في التراث الأدبي والنقدي، حيث عرفه ابن جني «بأنه ما يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع». والخطاب Discourse يعرف معجميًا بأنه «إيصال لفكرة عبر الكلمات» و «مناقشة أو معالجة موضوع في شكل كتابي أو شفاهي»(١٤).

وإلى جانب المعاني ذات المستوى اللغوي واللساني والنقدي؛ فإن لمصطلح الخطاب معنًى آخر فلسفيًا يتعلق بالدلالات الفكرية التي ينتجها المثقفون داخل المجتمع. وقد خص ذلك بالبحث الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكوفي كتابيه «حفريات المعرفة»(١٥) و «نظام الخطاب»(١٦)، مشيرًا إلى تعقد العناصر التي تتداخل في صناعة الخطاب وتوجيهه من ظروف اجتماعية وثقافية وسياسية، وإلى الهيمنة التي يمارسها منتجو الخطاب في حقل معرفي أو مهني على القارئ أو السامع.

كما يؤخذ على البحث أنه لم يعرف التفكيكية التي اعتمدها ضمن منهجه كأداة لتفحص واختبار الخطابات المدرجة كعينة للدراسة. وهي باختصار وسيلة إجرائية لتفحص النصوص والأفكار والمفاهيم بطريقة تشكيكية تسهل اكتشاف ماتحويه من مفارقات عقلية ومتناقضات منطقية. أو هي نفي ثبات المحصلات لصالح العلم الاحتمالي مما يدعو إلى فحص مايدعيه الخطاب من مسلمات وطرح احتمالات جديدة ومغايرة.

ومن المآخذ - أيضًا - أن البحث قد ذكر في البداية بأنه سيوازن بين النموذج الغربي والنموذج الإسلامي، مما حفز القارئ الواعي، ثم خيب أمله في النهاية. فبدلاً من أن تستخدم خطابات الإسلاميين الواردة في الكتاب كخطابات طارق البشري ومنير شفيق وحسن حنفي وعادل حسين من أجل تلك الموازنة، ومن أجل إلقاء الضوء على ملامح النموذج الإسلامي وأبعاده، اكتفى بأن جعله فارسًا يتلقى الضربات ثم يرمى به خارج المسرح الذي عرض البحث عليه خطابات أخرى. فالقارئ الواعي لابد أن يصاحبه التساؤل القلق لماذا انزوى النموذج الإسلامي؟ هل كان له خطاب واحد أم

خطابات متباينة؟ قد يكون هذا الموضوع في حد ذاته شائكًا ويتطلب أطروحة خاصة، ومع ذلك فإن الاكتفاء بتسمية النموذج بأنه مغلوب دون تكشيف للأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك أوجد ثغرة في الكتاب الذي كان من الأجدر به انتقاد أصحاب هذا النموذج في تحولهم إلى ثقافة شعبية تدافع عن وجودها بصيغ قد لا تتلاءم مع العصر أو على الأدق مع صيغ الخصم.

لقد تعرض البحث من خلال عرضه لآراء بعض المفكرين المعاصرين إلى الحقيقة التي تؤكد أن للأفكار خصائص تاريخية وثقافية تستمدها من السياق الحضاري الذي صنعها، وأن القوانين الاجتماعية تحكم الحضارات، بحيث يكون عمل هذه القوانين مرهون بشروط تاريخية لاتتحقق هذه الحضارات إلا بها. وبهذا قال برهان غليون وعلي أومليل وغيرهم. ونحن نعلم أن غير هؤلاء قد سبق في الإشارة إلى هذا، فمالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣)، مثلاً، أشار إلى هذه الحقيقة منذ الأربعينات (١٧). وكان الأجدر بالكاتب أن يبين ذلك في الهامش ليتتبع نشأة الأفكار وتطورها من جهة، ويبرهن على إلمامه بتدرج الفكر العربي بين مراحل الاكتشاف والتنظير والاستيعاب والتطبيق.

والدراسة بعد كل هذا، محاولة جادة لتفتيق الأذهان وإعادة طرح القضايا المهمة والتشجيع على مواصلة النظر إلى الإشكاليات القديمة من زوايا جديدة.

الهوامش

١- هيئة فكرية ثقافية حرة أنشئت بأمريكا (١٤٠١/ ١٩٨١)، هدفها إصلاح مناهج الفكر عن طريق الدراسات والبحوث الاجتماعية والعلمية وعقد الندوات والمؤتمرات، وتجميع جهود العلماء والباحثين في المراكز الأكاديمية والعلمية، واستصدار الكتب والدراسات والنشرات. وللمعهد مجلة دورية محكمة وسلسلة من الكتب منها قضايا الفكر الإسلامي، ورسائل جامعية، والفكر الإسلامي المعاصر، وإسلامية المعرفة وغيرها.

٢- فادي إسماعيل، **الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة (١٩٧٨-١٩٨٧)**. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٩٩٤، ص٨.

٣- السابق ص ٢٨ .

٤ - السابق ص ٣٣ .

٥ - السابق ص ٥٦ .

٦ - السابق ص ٥٩ .

٧ - السابق ص ٧٨ .

٨ - السابق ص ٨٤ .

٩ - السابق ص ٩٥ .

١٠ - السابق ص ١٠٠ .

١١ - السابق ص١٤١ .

١٢ - السابق ص ١٤٣ .

١٣ - السابق ص١٥٨ .

١٤- The Random House Dictionary .

١٥- ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ١٩٨٧ .

١٦- ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٤ .

١٧- Fawzia Bariun, Malik Bennabi: His Life & Theory of Civilization, Kuala Lumpur, 1993.

دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية *

أيمن بن علي الغغيلي

محاضر بقسم المكتبات والمعلومات

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية إشراف زيد عبدالمحسن الحسين ٠- ط٢ ٠- الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ٧٧٥ص.

تعد الأطروحة عملاً علمياً يتقدم به الباحث للحصول على درجة علمية معينة.

وهي قمة الإنتاج الفكري نظرًا لأنه يراعى لإجازتها أن تكون مبتكرة، وأن تأتي بالجديد سواء على مستوى الماجستير أو الدكتوراه.

كذلك فإنه لايتقدم لإنجاز هذه الأطروحة عادة إلا نوابغ الطلاب ممن حصلوا على معدلات عالية في درجاتهم الجامعية الأولى(١).

والأطروحات الجامعية تعد وعاء مهماً من أوعية المعلومات، ونظرًا لأهمية الأطروحات الجامعية فقد سعت الدول المختلفة إلى حفظها والتعريف بها، ومن هنا نشأت ظاهرة الضبط الوراقي للأطروحات الجامعية.

فالضبط الوراقي للأطروحات الجامعية على درجة عالية من الأهمية حفظًا لأوقات الباحثين وتفاديًا لتكرار البحوث.

وقد بدأت الدراسات العليا بالمملكة العربية السعودية مع إنشاء المعهد العالي للقضاء بالرياض التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٨٥هـ، وأجيزت أول أطروحة عام ١٣٨٩هـ. ولقد مضى حوالي ستة وعشرون عامًا من إجازة أول أطروحة، ويتوقع أن يكون هناك كم من الأطروحات قد نوقشت خلال هذه الفترة.

ومع هذا فليس هناك ضبط وراقي يتم بصورة منتظمة للأطروحات التي أجازتها الجامعات السعودية، والمحاولات التي ظهرت في هذا المجال عبارة عن محاولات فردية محدودة بفترة زمنية أو بجهة معينة، وليست مبنية على نظرة شاملة لضبط هذه النوعية المهمة من أوعية المعلومات.

ومن أبرز الأعمال الوطنية تبني مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م مشروع ضبط الأطروحات الجامعية المجازة من قبل الجامعات السعودية، وكان المركز رائدًا في هذا المجال بإصدار أول دليل وراقي شامل عن الأطروحات الجامعية المجازة من لدن الجامعات السعودية السبع، بالإضافة إلى وكالة الرئاسة العامة لتعليم البنات، والمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب؛ وكذلك إنشاء أول قاعدة بيانات للأطروحات الجامعية بالمملكة العربية السعودية والعمل مستمر في تجديد وتحديث معلوماتها بصفة دورية ومنتظمة.

وهذه الطبعة الثانية من الدليل تضم عددًا كبيرًا من الأطروحات المجازة بين عامي ١٤١٠هـ إلى بداية عام ١٤١٤هـ. وكذلك أطروحات قديمة لم تدرج في الدليل في طبعته الأولى، وذلك بسبب أنها لم تترجم إلى اللغة العربية إلا حديثًا.

حدود التغطية

يغطي الدليل الأطروحات الجامعية على مستوى الدكتوراه، الماجستير، والبحوث المكملة المجازة من لدن الجامعات السعودية السبع، ووكالة الرئاسة العامة لتعليم البنات، والمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب. الصادرة باللغة العربية أو الإنجليزية، وذلك منذ إجازة أول أطروحة عام ١٩٨٩م وحتى بداية عام ١٤١٤هـ. وقد بلغ عدد الأطروحات في هذه الطبعة (٧٠٥٣) أطروحة دكتوراه، وماجستير، وبحوث تكميلية.

ويوجد بعض الملاحظات التي تعد من العيوب المخلة بهذا الدليل، وهي كثرة عدد البحوث المكملة، فهذه بحوث من الأفضل عدم إدراجها ضمن الأطروحات فهي لا ترقى إلى مستوى الأطروحة العلمية، حيث إنها لا تعد أطروحة؛ بل بحث لا تتوافر فيه عناصر الأطروحة العلمية من حيث المنهج العلمي وعدد الصفحات والطباعة والمدة الزمنية لإعداد البحث.

- **طريقة التنظيم:**

رتبت الأطروحات في الدليل ترتيبًا هجائيًا حسب عناوينها منعًا للتكرار، مع مراعاة مايلي:

١- الأطروحات التي تناولت مخطوطًا محققًا واشترك في تحقيقه أكثر من باحث أدخلت تحت العنوان الأصلي للمخطوط المحقق حتى يمكن جمعها مع بعضها في مكان واحد، فيسهل على المستفيد من الدليل معرفة الأجزاء التي تم تحقيقها منه والتي لم تحقق بعد. وقد أدى هذا الإجراء إلى إحداث بعض التعديلات في العناوين الفرعية لبعض تلك الأطروحات رغبة في توحيد المداخل.

٢- الأطروحات التي صدرت بلغات أجنبية وأدخلت تحت عناوينها العربية الموازية أشير إليها بعلامة (*) بجانب رقمها المسلسل لبيان أنها كتبت بلغة غير العربية تسهيلاً للباحثين.

٣- أداة التعريف (ال) لم يعتد بها في الترتيب الهجائي.

٤- رقمت الأطروحات ترقيمًا مسلسلاً، بغية استخدام هذه الأرقام كرابط في الكشافات الملحقة للإحالة إليها لبيان مكانها في الدليل، وكذلك لمعرفة العدد الإجمالي للأطروحات الموجودة في الدليل.

وتكمن أهمية الترتيب الهجائي لعناوين الأطروحات أنه يكشف العناوين المكررة.

- **بيانات الوصف:**

مرتبة على النحو التالي:

عنوان الأطروحة وصاحبها (إذا كان مخطوطًا محققًا): العنوان الفرعي (إن وجد) / اسم الباحث - الدرجة العلمية - اسم الجامعة - الكلية ومكان وجودها (فقط في الكليات المتشابهة) - القسم - تاريخ المناقشة بالهجري.

الرقم المسلسل

ولم يذكر اسم المشرف، وفي اعتقادي أنه من الضروري إدراج اسم المشرف على الأطروحة ضمن البيانات الوراقية لكل أطروحة.

- **الكشافات:**

يحتوي الدليل على خمسة كشافات هجائية:

١- كشاف بأسماء الباحثين.

٢- كشاف المؤلف الأصلي، وذلك في الأطروحات التي تكون تحقيقًا لمخطوطة.

٣- كشاف بالمواد المحققة: لمن يرغب في التحقيق، ويريد تجنب إختيار مواد سبق تحقيقها من قبل.

٤- كشاف بالجامعات والكليات والأقسام.

٥- الكشاف الموضوعي.

- **إرشادات التنظيم والاستخدام:**

من مميزات هذا العمل وجود إرشادات تساعد الباحثين على استخدام هذا الدليل.

- **الصدور والاستمرارية :**

صدرت هذه الطبعة بعد خمسة أعوام من تاريخ صدور الطبعة الأولى، وهذه مدة طويلة وفجوة كبيرة . وتعد من القصور الموجودة في أداة مهمة من أدوات الضبط الوراقي للأطروحات الجامعية . فالباحثين بحاجة ماسة إلى أدوات ومعلومات حديثة، فنحن في عصر انفجار المعلومات بجميع أشكالها ، ومن ضمنها الأطروحات الجامعية، فكل عام تُناقش وتُسجل مئات الأطروحات . إذاً نحن بحاجة إلى الإعلام عن الأطروحات المجازة والمسجلة بأسرع وقت ممكن وبصفة فصلية أو سنوية على أقل حال .

- **كفاية القائمين على إصدار الدليل :**

يحتاج إعداد دليل بهذا الجهد والضخامة إلى طاقم نشري مدرب ومتخصص ومهيأ له كافة الوسائل المادية والفنية والدعم القوي من الجهة المصدرة .

فهذا العمل ينقصه العدد الكافي من الموظفين، فالقائمون على إعداده أفراد غير متخصصين في مجال المكتبات والمعلومات، وعددهم قليل وتنقصهم الخبرة في إعداد مشروع كبير وأداة مهمة من أدوات الضبط الوراقي الوطني للأطروحات الجامعية في المملكة العربية السعودية . ومن الأشياء التي تعزز وتؤكد ماذكرت ظهور الطبعة الأولى وبها نقص كبير في حصر الأطروحات وضبطها وإهمال جامعة عريقة ومهمة مثل جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وذلك بسبب أن أطروحات جامعة الملك فهد للبترول والمعادن كتبت باللغة الإنجليزية، ولا يوجد في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية من حاول ترجمة قوائم أطروحات جامعة الملك فهد، وفي اعتقادي أن العملية بسيطة ولا تعضد إهمال هذه الجامعة وإسقاطها وإسقاط أطروحاتها المهمة وخاصة في مجال العلوم البحتة والتطبيقية .

ومن الملحوظات الأخرى اعتماد القائمين على إعداد هذا الدليل على المراسلة في جمع المعلومات، وكان الأجدر بهم أخذ المعلومات عن الأطروحات من واقع سجلات الدراسات العليا في كل قسم من أقسام الدراسات العليا في الجامعات، وعدم الاعتماد على الأدلة أو القوائم التي تصدرها بعض الجامعات .

ومن الأشياء المهمة أن يكون بعض القائمين على إعداد هذا العمل مجيدين للغة الأنجليزية، لكي يتعاملوا مع الأطروحات التي كتبت باللغة الإنجليزية، ويستطيعوا معرفة وفهم المعلومات لترجمتها ترجمة غير مخلة بنصها الأصلي .

- **الأطروحات المسجلة :**

أضيف إلى هذه الطبعة ملحق في نهاية الدليل عن الأطروحات المسجلة . وتعد هذه الفكرة جيدة ومهمة إلا أن الملحق وضع بطريقة غير منظمة وبصفة ارتجالية، وهناك بعض الملحوظات على هذا الملحق يذكرها الباحث في النقاط التالية :

١ - الملحق عبارة عن قائمة بالجامعات، ووضعت كل جامعة لوحدها بدءاً بالجامعة الإسلامية . ويذكر أولاً أطروحات الدكتوراه المسجلة ثم أطروحات الماجستير ثم البحوث التكميلية .

٢ - يذكر عنوان الأطروحة فقط، ويهمل اسم الباحث واسم المشرف وتاريخ تسجيل الأطروحة .

٣ - يوجد نقص ملحوظ في مجال التغطية .

٤ - يوجد بعض الأطروحات الملغية من قبل الأقسام ومن الواجب عدم إدراجها ضمن الدليل، ومن الأمثلة على ذلك :

- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلاني : من بداية باب ما يحمل للعامل من أموال الرعية في كتاب الخلافة والإمارة إلى نهاية كتاب الأطعمة والأشربة : دراسة وتحقيق .

- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلاني: من باب الانتباز في الأسقية إلى آخر باب مايجب على الأمير من حسن السيرة وعدم الاستتار.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لخاتمة الحفاظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، من أول باب الوقوف بعرفة إلى آخر باب من تصدق ثم يرجع ذلك إليه ميراثًا: تحقيق ودراسة.

وهذه الأطروحات الملغاة والمدرجة في هذا الدليل من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية أصول الدين - قسم السنة - أطروحات ماجستير.

٥ - أهمل الدليل الإشارة إلى الأطروحات المسجلة في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، علمًا أنه توجد أعداد كبيرة مسجلة.

٦ - لم تذكر له أطروحات مسجلة في المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب.

- **دقة البيانات:**

أولاً - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة:

يوجد نقص ملحوظ في تغطية أطروحات الجامعة الإسلامية، وعدد الأطروحات الناقصة (٧٨) أطروحة ماجستير ودكتوراه موزعة على النحو التالي:

قسم الأدب والبلاغة: أطروحتان.

قسم اللغويات: (١٦) أطروحة.

قسم الفقه: أطروحتان.

قسم أصول الفقه: (٨) أطروحات ماجستير ودكتوراه.

قسم التفسير: (٢٠) أطروحة.

قسم السنة: (٥) أطروحات.

قسم العقيدة: (١١) أطروحة.

قسم التربية: (١٤) أطروحة.

ثانيًا: جامعة أم القرى:

في كلية الدعوة وأصول الدين وضع عدد كبير من الأطروحات من قسم العقيدة، والمذاهب المعاصرة وقسم الكتاب والسنة في مكان آخر وهو قسم الدراسات العليا الشرعية

ويوجد نقص في بعض الأقسام موزعة على النحو التالي:

قسم التربية الإسلامية: (٣) أطروحات.

قسم الاقتصاد الإسلامي: أطروحتان.

قسم اللغة العربية: (٤٣) أطروحة ماجستير ودكتوراة.

ثالثًا - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية:

يوجد نقص في الأقسام التالية:

قسم القرآن: (٦) أطروحات.

قسم علم النفس: (٣) أطروحات.

قسم النحو والصرف وفقه اللغة: أطروحة واحدة.

كلية الدعوة والإعلام بالمدينة المنورة ناقص (٥٨) بحثًا تكميليًا.

معهد تعليم اللغة العربية ناقص (٢٠) بحثًا تكميلياً.

قسم الفقه المقارن التابع للمعهد العالي للقضاء بالرياض ناقص (١١٠) أطروحات ماجستير ودكتوراه وبحث تكميلي.

- هناك مبالغة وزيادة في عدد الأطروحات في كلية الدعوة والإعلام بالرياض في قسم الإعلام، فقد ذكر أن عدد الأطروحات (١١٧) أطروحة ماجستير ودكتوراه في حين أن عددها هو (٦٠) أطروحة.

كذلك قسم الدعوة والاحتساب الموجود في الدليل (٩٠) أطروحة والواقع (٤٦) أطروحة ماجستير ودكتوراه.

- المعهد العالي للقضاء بالرياض كما هو معروف يوجد به قسمان هما قسم السياسة الشرعية وقسم الفقه المقارن.

أما في الدليل فإنه أضاف قسمًا ثالثًا وهو قسم الشريعة الإسلامية، وذكر أن هذا القسم قد منح (١٣٥) أطروحة ماجستير ودكتوراه. وفي الواقع لا يوجد قسم بهذا الاسم.

رابعًا- جامعة الملك سعود:

يوجد نقص في بعض الأقسام :

قسم اللغة الإنجليزية: أطروحة واحدة.

قسم اللغة العربية : (٣) أطروحات.

قسم الثقافة الإسلامية : (٣) أطروحات.

قسم الإنتاج الحيواني : (١٠) أطروحات.

قسم علوم صحة المجتمع: أطروحة واحدة.

- يوجد بعض التداخل والدمج بين الأقسام ففي كلية الزراعة دمج قسم وقاية النبات مع قسم الإنتاج النباتي، ومن المفترض فصل هذين القسمين عن بعضهما.

خامسًا- جامعة الملك عبدالعزيز:

يوجد نقص في بعض الأقسام :

قسم اللغات الأوربية وآدابها: أطروحتان.

قسم العلوم البيئية : (٥) أطروحات.

قسم التربية الإسلامية: أطروحة واحدة.

قسم الإحصاء: أطروحة واحدة.

قسم الأحياء : (٤) أطروحات.

قسم الرياضيات: أطروحتان.

قسم الفيزياء: (٣) أطروحات.

قسم الكيمياء: أطروحتان.

قسم الكيمياء الحيوية : (٥) أطروحات.

قسم جيولوجيا البترول والترسبات : أطروحتان.

قسم جيولوجيا المياه (٧) أطروحات

قسم الجيولوجيا الهندسية : (٧) أطروحات.

قسم علوم البحار البيولوجية: أطروحتان.

قسم هندسة الإنتاج وتصميم النظم الميكانيكية : (٣) أطروحات.

قسم الهندسة المدنية: أطروحتان.

- ذكر في كلية علوم الأرض قسم الجيولوجيا التطبيقية وفي الواقع لا يوجد قسم بهذا الاسم. كذلك دمجت هنا بعض الأطروحات، ومن المفترض أن توضع مع قسم جيولوجيا المياه.

- كذلك أسقط وأهمل بعض الأقسام مثل:

قسم الجيولوجيا الاقتصادية الذي أجاز (١٥) أطروحة.

قسم الجيولوجيا البنائية الذي أجاز أطروحة واحدة.

قسم الهندسة النووية الذي أجاز أطروحة واحدة.

سادسًا- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن:

من العيوب والأخطاء الموجهة ضد هذا الدليل عدم الإشارة إلى مجموعة كبيرة من الأطروحات التي نوقشت في هذه الجامعة وعددها (٣٩٥) أطروحة ماجستير ودكتوراه موزعة على النحو التالي:

قسم هندسة الإنشاءات : (١٠) أطروحات.

قسم الجيولوجيا : (٨) أطروحات.

قسم الرياضيات : (٢٧) أطروحة.

قسم علوم الأرض : (٧) أطروحات.

قسم الفيزياء : (٩) أطروحات.

قسم الكيمياء : (٣) أطروحات.

قسم هندسة البترول: (١٨) أطروحة.

قسم الهندسة الكهربائية : (٧١) أطروحة.

قسم الهندسة الكيميائية : (٤٦) أطروحة.

قسم الهندسة المدنية : (١٠٢) أطروحة.

قسم الهندسة الميكانيكية (٥٤) أطروحة.

قسم علوم وهندسة الحاسب الآلي : (١٠) أطروحات.

قسم هندسة النظم : (٢٠) أطروحة.

- وكذلك من الملحوظات الإشارة إلى أن قسم هندسة التربة في كلية الهندسة التطبيقية قد منح أطروحات، وفي الواقع أن هذا القسم لم يجز أية أطروحة.

سابعًا - جامعة الملك فيصل:

- أشير إلى كلية الطب والعلوم الطبية، حيث اجاز قسم طب الأسرة والمجتمع ثلاث أطروحات، وفي الواقع لم يجز هذا القسم أية أطروحة.
- يوجد نقص في كلية العلوم الزراعية والأغذية، ولم تدرج أطروحات قسمي الاقتصاد المنزلي وقسم الاقتصاد والإرشاد الزراعي، حيث أجاز القسم الأول أطروحتان وأجاز القسم الثاني أطروحة واحدة.
- يوجد دمج بين قسمي تنسيق المواقع وقسم علوم وتقنية البناء في كلية العمارة والتخطيط، فذكر أنه في قسم تنسيق المواقع يوجد سبع أطروحات والواقع ست أطروحات، كذلك في قسم علوم وتقنية البناء يوجد في الدليل ست أطروحات والواقع سبع أطروحات.

خاتمة

وبعد؛ فإن هذا النقد وإلقاء الضوء على بعض الملحوظات المتعلقة بهذا العمل وإبراز بعض جوانب القصور، لا يعني التقليل من هذا الجهد الطيب والأداة المهمة من أدوات الضبط الوراقي للأطروحات الجامعية في المملكة العربية السعودية.

والقصد من هذه الملحوظات أن تعين على تصحيح بعض الأخطاء، كي نرقى بهذا العمل إلى درجة أفضل، ونستطيع أن نتلافى بعض الأخطاء في المستقبل وفي الإصدارات المقبلة وأن يكون هذا العمل بداية القاعدة الأساسية لعملية الضبط الوراقي للأطروحات الجامعية في المملكة العربية السعودية.

فنحن بحاجة ماسة إلى مركز أو مكتبة وطنية أو مؤسسة تجارية تقوم بتجميع الأطروحات الجامعية السعودية وتنظيمها وإصدار أدلة، وكشافات، ومستخلصات، وقوائم وراقية وطنية للباحثين ولأقسام الدراسات العليا في الجامعات والكليات، لكي نتجنب تكرار البحوث وضياع الوقت والجهد والمال.

وكذلك بحاجة إلى تقديم الأطروحات إلى المستفيدين للاطلاع والاستفادة من مصدر خصب ومهم من مصادر المعلومات.

الهوامش

* **دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية.** تخطيط وإشراف زيد بن عبدالمحسن آل حسين. - ط٢. - الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٥هـ. - ٧٧٥ص.

(١) شعبان، خليفة. **الرسائل الجامعية والمطبوعات الحكومية.** - القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٧٩م. - ص ٣.

المراجع

٢- تمراز، أحمد بن علي. دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية: عرض وتحليل. - **مجلة المكتبات والمعلومات العربية**، س١٢، ع٢، (أبريل ١٩٩٢م / شوال ١٤١٢هـ). - ص ١١٨ - ١٢٨.

٣- **دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية.** تخطيط وإشراف زيد بن عبدالمجسن آل حسين. - ط ٢. - الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٥هـ. - ٧٧٥ص.

٤- الغفيلي، أيمن بن علي. **الضبط الوراقي للأطروحات الجامعية في المملكة العربية السعودية** (أطروحة دكتوراه مسجلة)، قسم المكتبات والمعلومات، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٤هـ.

عبدالإله أحمد نبهان
كلية الآداب
قسم اللغة العربية
حمص – سورية

علم التعمية واستخراج المُعَمّى عند العرب

الجزء الأول

دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم

محمد مراياتي – محمد حسّان الطيّان – يحيى ميرعلم

مراياتي، محمد/علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم، محمد مراياتي؛ محمد حسان الطيّان، يحيى ميرعلم؛ تقديم شاكر الفحام.- دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٨٧م.- ١ ج.

علم التعمية واستخراج المعمى علم ابتكره العرب، واستدعت إبداعه ظروف الإدارة المعقدة وحاجتها إلى السرية في عهد إمبرطوريتهم الكبرى أيام العباسيين، واستمر هذا العلم ينمو إلى أن زالت دواعيه فاندثر أو كاد، ولم يبق منه إلا نتف في كتب الأدب العامة كصبح الأعشى في صناعة الإنشا، وانتشر عوضًا عنه علم التعمية البديعي في مجال الشعر، مما يناسب ما شاع أيام تأخر العرب وانحطاط دولتهم. لكنّ هذا العلم – علم التعمية – انبعث من جديد باسم آخر، وقد استدعته الضرورات العسكرية والإدارية في ظروف الحضارة الغربية، فبرز لديهم باسم علم الشفرة ENCIPHER وشاع عنهم وانتقل إلى سائر الأمم على أنه علم أوربي تسميةً ومضمونًا. وكان أن أصدر مجمع اللغة العربية بدمشق كتاب علم التعمية، وصدَّره الدارسون المحققون بدراسات رصينة أماطت اللثام عن حقيقة هذا العلم، وحددت ولادته الحقيقية مبَرْهنًا عليها بنص تام محقق لمبتكر هذا العلم، مع نصوص أخرى لاحقة لمؤلفين آخرين. وقد قدم للكتاب شاكر الفحّام قائلاً: إن هذه الدراسة الغميسة قد فتحت للباحثين أبوابًا كانت موصدة، وبسطت أمامهم آفاقًا عريضة. ونظرًا لأهمية هذا الكتاب في مجال تاريخ العلم وتطوره وانتقاله من حضارة إلى أخرى، فإننا رأينا أن نعرف به ونلفت الأنظار إليه.

قسم الدارسون المحققون كتابهم إلى ثلاثة أقسام:

فأما القسم الأول فقد اشتمل على دراسة تحليلية لعلم التعمية عند العرب، وفيه تحدث المحققون عن العوامل التي أسهمت في قيام هذا العلم واستدعت وجوده، ودفعت به قدمًا، فكانت هناك عوامل جمة ارتبط بعضها ببعض، فهناك ذلك النشاط العلمي القوي المتمثل في عناية العرب بالترجمة إلى لغتهم، وفي عنايتهم بلغتهم نفسها كما كان هناك ذلك التقدم الكبير الذي أحرزوه في علوم الرياضيات وغيرها، وكل ذلك تم في إطار اجتماعي انتشر العلم بين فئاته المختلفة. وكانت هناك تلك الإدارة المعقدة وحاجتها إلى لغة خاصة في بعض علاقاتها، وهنا برز ابتكار فن التعمية بوصفه فنًا أملته ضرورات السياسة والإدارة.

وخصص المحققون الباب الثاني من القسم الأول لعرض التعريفات الأساسية لعلم التعمية، لأن العلم بالشيء لا يستقيم إلا بعد ضبط مصطلحه وتحديده. ومن

أهم ما قدمه لنا هذا الباب هو الكشف عن أصل لفظ (الشفرة) فقد ذكر أن التعمية مصطلح يُعبر به عن تحويل نص واضح إلى نص غير مفهوم باستعمال طريقة محددة، يستطيع مَنْ يفهمها أن يصل إلى حل المبهم وفهم النص.

وكذلك كلمة (التشفير) تعطي المعنى نفسه، وهي كلمة واردة من اللغات اللاتينية CIPHER ولكن هذه الكلمة مأخوذة من كلمة عربية النِّجار هي (الصفر). وذلك أن الأرقام العربية (0. 1. 2. 3. 4) لما دخلت العالم الغربي بدا مفهوم الصفر غاية في الإبهام والتعمية، فكان أن شاع مَثَلٌ في اللغة اللاتينية يستعمله المتكلم عندما يريد أن يقول: إنه يتكلم عن أمور مفهومة لا عن شيء مبهم معمى كـ «الصفر» ومن هنا جاءت فكرة الكلمة (صفر: CIPHER) في جميع اللغات الأوربية للدلالة على التعمية التي طوّر العرب عملياتها ودرسوا خصائصها حتى أعطوها طابع العلم. وضبطوا مصطلح الترجمة، وهي تعني في هذا السياق: استخراج المعمى: Decipher وذلك حسب ما قرره القلقشندي صاحب صبح الأعشى. ثم عرّف الدارسون تتمة مصطلحات هذا العلم، فمن ذلك مثلا:

النص الواضح: Plain Text =Clear Text

النص المعمى: Cipher Text أو cryptogram

طريقة التعمية: Cipher Method

طريقة القلب: Trans Position

طريقة الإعاضة: Substitution

وغير ذلك من مصطلحات هذا العلم.

وعقد المحققون حديثهم في الباب الثالث عن الطرق الأساسية الخاصة للتعمية، فبينوا أن هناك التعمية بالتورية وبالقلب وبالإعاضة أو التبديل، أو بزيادة حروف أو بحذفها، ثم هناك التعمية المركبة التي تكون باستعمال طريقتين أو أكثر، وعرضوا بعض هذه الطرق.

وعقد الباب الرابع لتاريخ علم التعمية، فذكر الدارسون أن تاريخ علم التعمية من حيث الاستعمال والتداول إنما يعود إلي عهد سحيق وربما إلى عام ١٩٠٠ قبل الميلاد.

أما معالجة التعمية بوصفها علمًا له قواعده وأسسه ومبادئه فقد بدأ بالخليل بن أحمد الفراهيدي (توفي ١٧٠هـ = ٧٨٦م) وابن وحشية النبطي (توفي بعد ٢٩١هـ = ٩١٤م) وغيرهما، وتوّج هذا العلم بعمل يعقوب بن إسحاق الكندي (ت ٢٦٠هـ = ٨٧٣م) وعمله أوفى على الغاية دقةً وشمولاً وتصنيفًا واستعمالاً لخواص اللغة التي يُعمّى أو يُحلّ بها.

وذكر المحققون أن ازدهار هذا العلم خَفَت قليلاً بعد الكندي، ثم ازدهر من جديد في القرنين السابع والثامن الهجريين أي الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وذلك أيام الحروب الصليبية، فظهرت كتب ابن دنينير (ت٦٢٧هـ = ١٢٢٩م) وابن عدلان (ت ٦٦٦هـ = ١٢٦٨م) وابن الدُّريهم (ت ٧٦٢هـ = ١٣٥٩م) وواضح أن الضرورات العسكرية دفعت إلى ازدهار هذا العلم، ثم خبا وهجُه، وانطفأ أو كاد ليظهر بعدئذ في أوربا كما سيظهر لاحقًا.

وعقد المحققون الباب الخامس لبيان الصلة بين علم التعمية والعلوم الأخرى، فتحدثوا عن صلته بعلم الترجمة إلى العربية عن اللغات الأخرى السائدة والبائدة، ويكفينا ههنا لبيان هذا الأمر ما نقبسه من قول أبي يعقوب الكندي: «إن استخراج المعمى لمن أعظم المنافع إذ كثير من ذوي الفلسفة والآراء الباقية استعملوا وضع الكتب برسوم مجهولة صفاتها، عزّ مَنْ قصر عن استحقاق منافعها، ولم يرتق في غمار العلوم إلى مراتبها «وكذلك ألف ابن وحشية كتابه» شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام وقد اكتشف فون هامر Von Hammer هذا الكتاب وترجمه إلى الإنجليزية عام ١٨٠٦م ونشر عنه سلفستردي ساسي Sylvestre de

Sacy دراسة في باريس سنة ١٨١٠م وكان ذلك من أهم المساعدات التي قدمت للعالم الفرنسي شامبليون J. F. Champollion في كشفه عن أشكال اللغة الهيروغليفية. وكل هذا إن دل على شيء فإنه يدل على معرفة العرب للأقلام القديمة وقراءتها وحلها، فكانت دراستهم منارات هادية في تاريخ الحضارة العام.

وعقد المحققون الكلام عن التعمية وصلتها بعلوم اللغة العربية، وقد وجدوا أن الكثيرين ممن برعوا في علوم اللغة، برعوا في علم التعمية أيضًا، لأن العمل في التعمية يعتمد على بعض المعطيات اللغوية، لأن معرفة الكمية أي تواتر الحروف، أمر لابد منه وكذلك معرفة الكيفية أي أطوال الكلمات وقد استخدم علماء التعمية العلوم اللغوية الآتية:

الصوتيات: Phonetics

إحصاءات الحروف والمفردات: Statistical Linguistics

علم الصرف: Morphology

علم المعاجم: Lexicology

النحو والتراكيب: Syntax - Grammar

الدلالة: Semantics

العروض: Prosody

وقد نص على ضرورة هذه العلوم ابن عدلان نصًا صريحًا في رسالته في المُعمى، وذكر المحققون انتشار التعمية في الشعر والعروض، وذكروا المؤلفات التي تناولت هذا الفن. ثم بحثوا في الصلة بين علم التعمية والرياضيات، وهي صلة وثيقة قوامها إحصاءات دقيقة تستهدف بيان مراتب الحروف وتواترها كما بين الكندي.

ومما هو جدير بالتنويه، تلك الجداول التي كان المحققون يختتمون بها بعض أبواب دراستهم، وهي جداول ذات علاقة ماسّة بموضوع الباب. ففي نهاية هذا الباب مثلاً وضعوا جدولاً اشتمل على أعلام الرياضيات من العرب مع تاريخ وفياتهم وذكر أهم مؤلفاتهم، ثم تحدثوا عن صلة التعمية بعلوم الإدارة، وقد سبقت الإشارة إلى أن قضايا الإدارة وما تتطلبه من سرية أحيانًا هي البيئة التي نشأ ونما في ظلالها علم التعمية وقد نص المصنفون على أهمية هذا العلم كما فعل القلقشندي مثلاً في المجلد التاسع من كتابه صبح الأعشى، وما كتبه يدل على أن العرب استخدموا هذا العلم على نحو واسع، لأن دواعي نموه وأسباب استعماله أدت إلى الاتساع فيه ولم يخلق اعتباطًا، وإنما برز بوصفه علمًا مستقلا إلى جانب علم الرياضيات وعلم الإدارة وعلم اللغة.

وهنا يبدأ القسم الثاني من الكتاب، وهو يشتمل على تحليل قدمه المحققون للرسائل الثلاث التي قاموا بتحقيقها، وجعلوا هذا القسم في أبواب أربعة وخصصوا الباب الأول لترجمة أصحاب الرسائل وهم: الكندي وابن عدلان وابن الدريهم، أما الأبواب الثلاثة الأخر فقد استقل كلّ باب بتحليل واحدة من الرسائل موضوع التحقيق. وهذا التحليل في حقيقة أمره يعدّ مدخلاً أساسيًا لابد منه في عصرنا لمن يريد دراسة هذه الرسائل على نحو جاد.

أما التراجم فإنها كانت موجزة مكثفة، تحيط بأهم جوانب المترجم، مع تركيز على أسماء مؤلفاته وأماكن وجود مخطوطاتها في مكتبات العالم إن عرف لها وجود، ومع النص على موضع النشر وتاريخه إن كان من المؤلفات المنشورة، وعلى المواضع التي ذكر فيها الكتاب في المصادر العربية القديمة.

وتلا ذلك الباب بابٌ في دراسة رسالة الكندي في استخراج المعمى وتحليلها، وبدأ التحليل بتقسيم الرسالة إلى أقسامها الأساسية:

١- سُبل استخراج المعمّى.

٢- أنواع التعمية العِظام.

٣- مناهج استخراج بعض أنواع التعمية.
٤- دوران الحروف ومراتبها في اللغة العربية.
٥- اقتران الحروف وامتناعه في اللغة العربية.

ثم تمّ تحليل كل قسم من هذه الأقسام على نحو مفصل يُعدّ القارئ المعاصر لفهم الرسالة التي تفصل بيننا وبين مؤلفها مئات السنين، وذلك مع ربط ما أتى به الكندي بعلم التعمية المعاصر المصطلح عليه بـ «الشفرة» فمثلاً يذكر أن التعمية البسيطة Simle Encipher ment تنقسم إلى قسمين: الأول بتبديل أشكال الحروف Letters Change Their Forms وهذه يتفرع منها فروع نذكر منها ههنا: تبديل أشكال الحروف دون ربط وشرح، ويكون ذلك بطريقتين نذكر منها طريقة واحدة هي تغيير حلية الحرف Simple Substitutior وهي ما يسمى في المفهوم المعاصر: الإعاضة البسيطة أو التبديل، وهي كما يلي:

أشكال الحروف المعماة هي نفسها أشكال حروف اللغة، ويمكن أن تكون على النحو التالي:

حروف النص الواضح: أ ب ت ث ج ح

حروف النص المعمى: ب أ ث ت ح ج . . .

وهذه الطريقة تسمى في المصطلح الغربي: Monoalphabetic Simple Substitution ولا نريد الاسترسال في ضرب الأمثلة، وحسبنا هذا المثال من الكندي، وإنما هدفنا بيان عمل المحققين من حيث ربط علم التعمية القديم بعلم «الشفرة» الحديث، وقد أكون مبالغًا أو لا أكون إن قلت: إن تحليل رسالة الكندي يغني عن قراءتها، ولكنني لن أكون مبالغًا بحال إن قلت: إنه لولا هذا التحليل وذلك الربط لغدت الرسالة الأصلية بين أيدينا وكأنها مجرد رموز تحتاج إلى حل.

ومن أجمل القوانين اللغوية التي ذكرها الكندي ذكره مالا يقترن في العربية من الحروف، وهي معلومات تفرقت وتوزعت في بطون المعجمات، فأتى الكندي واستكملها واستوعبها في موضع واحد.

وكانت أهم النتائج المستنبطة في هذه الدراسة هي أن «الكندي هو أبو التعمية واستخراج المعمى في العالم، إذ كتب أول مخطوطة عرفت في التاريخ في هذا العلم، وذلك في القرن الثامن الميلادي، أي قبل سبعة قرون من وضع أول مخطوطة في الغرب من قبل ليون تاتستا البرت Leon Battista Alberti الذي كتب رسالته المؤلفة من ٢٥ صفحة سنة ١٤٦٦م باللغة اللاتينية.، وهو يُعد أبا التعمية في الغرب، بينما ينسب الألمان هذه الأولية إلى Trithemius الذي وضع كتابه Polygraphia سنة ١٥٠٨م ثم عدد المحققون الأسس المهمة التي وضعها الكندي لعلم التعمية وهي:

١- التفريق الواضح بين طرق التعمية الأساسية، الإبدال والقلب والطرق الأخرى.
٢- توضيح المراد بالتعمية المركبة.
٣- استعمال الطريقة التحليلية لاستخراج المعمى باستخدام تواتر الحروف في اللغة ومراتبها.
٤- اعتماد تواتر الثنائيات Contactcaunt عند استخدام اقتران الحروف بعضها ببعض، أو عند امتناعه بالتقديم والتأخير.
٥- استعمال فكرة الكلمة المحتملة.
٦- إجراء إحصاءات عملية على تواتر الحروف في اللغة العربية، والإشارة إلى مبادئ ذلك في كل اللغات.
٧- الفهم الواضح لطبيعة الحروف والتمييز بين المصوّتة والمخرس، والمصوّتة الكبرى والمصوّتة الصغرى.

ثم قدم المحققون تحليلاً لرسالة ابن عدلان النحوي في حل التراجم، وهذه الرسالة لم تشتمل على فنون التعمية كسابقتها، ولكنها تعد دليلاً للدربة والمران على هذا الفن. واشتمل التحليل على ثلاثة فصول اشتملت على تلخيص تام لما ورد في الرسالة.

وأهم هذه الفصول الفصل الثاني الذي اشتمل على قواعد حل الترجمة (المعمى) ووجد المحققون أن

ما في رسالة ابن عدلان من معلومات قيمة - يرتقي ليكون اليوم - وبعد مرور ما يربو على سبعة قرون - دليلاً عملياً للباحث في علم المعمى واستخراجه.

واشتمل الباب الرابع على دراسة وتحليل لرسالة ابن الدريهم «مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز» وهذه الرسالة أوسع ما عثر عليه احتواءً وتفصيلاً لعلم التعمية، وقد اشتملت رسالته التي كانت إلى وقت قريب في حكم المفقودة على الفصول التالية:

١- ما لابد منه لمن يعاني علم حل الترجمة.

٢- ضروب التعمية.

٣- مقدمة صرفية.

٤- منهجية حل الترجمة.

٥- مثالان عمليان في حل الترجمة.

ويُعّد الفصل الثاني من الفصول المهمة لما اشتمل عليه من ضروب التعمية، منها ما ذكره الكندي، ومنها ما انفرد بإيراده ابن الدريهم، فقد ذكر مثلاً طريقة إبدال حساب الجمل بالحروف وهذه طريقة أغفل ذكرها ابن عدلان كما كان أغفلها الكندي.

وأشار الباحثون في النهاية إلى ازدهار علم التعمية وتطوره في العراق والديار الشامية، وانتهى بعضه إلى الديار المصرية.

أما القسم الثالث، الأخير فقد اشتمل على الرسائل المحققة التي تم تحليلها ودرسها، في القسم الثاني، وقد جرى المحققون على نهج واضح في التحقيق العلمي المتسم بالدقة والأمانة، فقدموا لكل رسالة بمقدمة تم فيها وصف مفصل للمخطوط الذي اعتمده الباحثون، وتحديد لمكان وجوده، ووصف للمجموع الذي اشتمل على المخطوط، لأن هذه الرسائل جميعًا كانت ضمن مجاميع يحتوي كل منها على عدد من الرسائل في المكتبة السليمانية بتركيا. ثم قدموا نصّاً مضبوطًا مرقومًا مزوداً بالحواشي اللازمة على نحو موجز من غير ما إخلال. ولن نتحدث ههنا عن الرسائل، لأنه سبق الحديث عن محتواها في كلامنا عن القسم الثاني من الكتاب. وقد زوّد الكتاب بعشرة فهارس تسهل الرجوع إليه والاهتداء إلى ما اشتمل عليه من كبير القضايا وصغيرها.

إن صدور هذا الكتاب سيكون له شأن كبير عند مؤرخي علم التعمية وعند مؤرخي العلوم عمومًا، لأنه يضع بين أيديهم لأول مرة كتبًا أصولاً في هذا العلم، كانت إلى عهد قريب في حكم المفقودة أو الميئوس من العثور عليها. ولم يكن أحد يستشرف إلى ما يمكن أن تقدمه لنا هذه الكتب في مجال تاريخ العلم.

وإن ما قدمه المحققون الدارسون من مقدمات وتحليلات ودراسات، فاقت بحجمها أحجام الرسائل المحققة مجتمعة ليعد دليل صدق وجدية ومنهجية في مجال تحقيق التراث العلمي العربي، الذي لا يمكننا الآن - في عصرنا - أن نصل إلى فهمه واستيعابه إلا عبر هذه المداخل المعمقة والمبسطة في آن، والتي يقدمها أصحاب الاختصاص.

وهناك أمر كنت تجاوزته ثم وجدت أنه لا بد من الإشارة إليه، فقد توصل المحققون إلى أن أصل تسمية هذا العلم هو التعمية، وأن المصطلح العالمي الآن هو «الشفرة» وقد وجدوا أن لفظ «الشفرة» وهو بدوره مأخوذ عن لفظ «الصفر» العربيّ النجار، ولذلك كله استغرب الدارسون أن يَعْدل مجمع اللغة العربية بالقاهرة من الأصل إلى الفرع، ويقرّ استعمال كلمة الشفرة بدلاً من المصطلح الأصيل الذي هو علم التعمية.

وإذا كنا أشدنا بجهود المحققين، فلا بد من الإشادة بفضل مجمع اللغة العربية بدمشق على تبنّيه نشر هذا الكتاب، فقدم بذلك خدمة جلى لتاريخ العلم ومؤرخيه، وللحقيقة وللحضارة على الصعيدين العالمي والعربي.

النص الفكاهي في درس النحو (*)

لمحمد صالح بن عمر

أبو أوس إبراهيم الشمسان
استاذ مشارك في قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الملك سعود - الرياض

ابن عمر، محمد صالح / النص الفكاهي في درس النحو .- تونس : الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، ١٩٩٥م .

تعليم اللغة ونحوها همٌّ من الهموم التي تشغل المهتمين باللغة لما يرونه من ضعف في الأداء اللغوي ونقص في مهاراته، ولا تزال المحاولات مستمرة في سبيل تذليل العقبات وتيسير الطلب على الرغم من أن تلك الجهود قد تخلط بين تعليم اللغة وتعليم نحو اللغة فلا اللغة تتعلم ولا النحو يفقه .

ومؤلف هذا الكتاب من المهتمين اهتمامًا مباشرًا بأمر اللغة فهو أستاذ محاضر في معهد بورقيبة للغات الحية التابع لجامعة تونس .

أما عنوان الكتاب فهو (النص الفكاهي في درس النحو) وهو عنوان قد يوحي للوهلة الأولى أنه دراسة علمية للنصوص الفكاهية المستخدمة في تعليم النحو، وليس الأمر كذلك؛ بل هو كتاب نحوي يتخذ من النص الفكاهي منطلقًا للدرس، وليس هذا الكتاب معنيّاً بدرس الظواهر النحوية بعامة ولا بدرسها على الترتيب المألوف في الكتب النحوية المتأخرة أو الكتب المدرسية ؛ بل هو كتاب معني بدرس بعض الظواهر اللغوية التي لها صفة التلازم تلازمًا جعلها عند بعض الدارسين مركبات، ومن أجل ذلك جعل المؤلف لكتابه عنوانًا فرعيّاً هو (نحو المركبات) كما يظهر على الغلاف الخارجي للكتاب و (المركبات النحوية) كما يظهر على الغلاف الداخلي للكتاب، ولست أدري ما السر في هذا الاختلاف وليس الاختلاف بشكلي كما قد يتوهم بعض الناس .

والكتاب قد طبع بآلة طابعة متواضعة فأثر هذا على مظهر الكتاب على الرغم من مهارة الطابع واجتهاده، والناشر هو الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، التي يحمد لها التصدي لنشر الكتب المتخصصة التي توجه لفئات خاصة . وهذه هي الطبعة الأولى للكتاب صدرت في مارس ١٩٩٥م . وبلغ ما طبع من النسخ ٣٠٠ نسخة، وهذا مؤشر إلى مدى الزهد بهذا اللون من الكتب، ويعكس حقيقة الازورار عن كتب علوم العربية .

يتألف الكتاب من تقديم، ثم حديث عن كيفية نشأة المدرسة التونسية، ثم تتوالى موضوعات الكتاب .

أظهرت المقدمة أن الكتاب موجه إلى طلبة أستاذية اللغة العربية الذين لهم معرفة سابقة بالنحو العربي . وأن هدفه الأساسي الانتقال بالطالب إلى مرحلة متقدمة من معرفة حالات استعمال المركبات، ومعرفة مكوناتها، وعلاقاتها .

وإلى جانب ذلك أهداف أخرى منها :

١ - ربط الطالب بالتراث بالإحالة في درس المسائل

على مواطنها في الكتب التراثية .

٢ - استكمال عمل الأستاذ الذي لا يكفيه الوقت للتفصيل والتحليل .

٣ - الإسهام في بلورة (النحو التونسي) بنقد أهم مفاهيمه .

٤ - عرض طريقة جديدة في تعليم النحو بالانطلاق من نص فكاهي مضحك لإثارة اهتمام الطلبة واستدراجهم إلى الإقبال على الدرس بانشراح، ودرء ما يعتري نفوس البعض منهم من ملل وضجر نتيجة لما تتسم به المواد اللغوية، عامة، من ثقل وجفاف .

ويؤيد المؤلف أهمية هذه الطريقة بما يصفه من نتائجها قال : «وقد جربنا هذه الطريقة طيلة ثلاث سنوات متتالية بمعهد بورقيبة . . . فثبتت نجاعتها . . . إذ ازداد إقبال الطلبة . . . وتضاعف عدد الناجحين» .

ويتحدث في المقدمة عن استعمال الكتاب في الفصل :

١ - يعد الطلبة الدرس النظري خارج الفصل .

٢ - يبدأ الأستاذ بتعريف المركب المراد تدريسه .

٣ - يشترك الأستاذ وطلبته في ممارسة مناشط النص الأول : يتوقف عند الحالات الإشكالية، يجيب عن الأسئلة، يوضح ويشرح ويعطي أمثلة ومعلومات .

٤ - يختم الدرس بملخص لأهم القضايا، يكلفهم بمناشط النص الثاني، تعيين الدرس الموالي ليستعد الطلبة له .

وأما كيف نشأت المدرسة النحوية التونسية (ص٨) فهو حديث عن بداية هذه المدرسة على يد عبدالقادر المهيري وزملائه ومتابعة صلاح الدين شريف ومحمد الشاوش لدرس المركبات ويعود المؤلف مرة أخرى للحديث عن هذه المدرسة عند درس الجملة إذ يدرس في (ص٢٩) الجملة في المدرسة التونسية، ثم في (ص٤٠) المدرسة وآفاق المستقبل . ولعل الإنسان يحس بشيء من المبالغة في إعطاء جهود هؤلاء الأساتذة صفة الاستقلال حتى يعد مدرسة فما فعلوه لا يعدو أن يكون إعادة للنظر إلى بعض الظواهر في إطار النحو العربي، ولما تصل جهودهم إلى درجة من الاستقرار والثبات فهي موضع نظر وفائدتها في مجال الدرس النحوي واللغوي لما يتحقق منها بعد .

أما محتويات الكتاب فهي كما سأنقلها لك بتسلسلها لا تفصح عن غرض واضح من هذا التتابع فالتراكيب تبدأ بالتركيب الشرطي على الرغم من كونه متعلقًا بالجملة المركبة التي يتأخر درسها عن الجملة البسيطة، ونجده أخر المركب بالجر عن المركب الإضافي على ما بينهما من علاقة واضحة . وفصل المركب العطفي عن المركبات النعتية والبدلية والتأكيدية . ثم نجده بدون سبب يجمع في حيز واحد مجموعة من المركبات .

وهذه محتويات الكتاب وأمام كل موضوع رقم الصفحة :

الملاحظات على الكتاب:

١ - **النصوص:**

أ - لا يتصف مضمون هذه النصوص المختارة بالفكاهة بل يتصف بالغرابة التي قد تنفر منها النفوس ذوات الحس المرهف ؛ فالنص الأول (الحية لا تلد إلا حية) ينقل مشاتمة وسبابًا يقع بين أب وابنه، ولئن كان فيه فكاهة عند أحد؛ فإنه سيبعث الضيق عند آخر، ومضمون النص الثاني (الملسن) ص٤٨ يتحدث عن شخص له لسان خرافي طويل يلعق به كل شيء وهو أمر باعث على الشعور بالغثيان، وأما (أبو جراب الزعاق) فهو عن رجل له صوت مفزع، وليس في النص ما يدل على الفكاهة، ويحدث نص آخر عن رجل وامرأة جمعت بينهما الدمامة ولا نجد في النص فكاهة، ويحكي نص (العملس الوأواء) عن رجل جاوز الأربعين وهو دائم البكاء والصراخ كالأطفال، وليس في النص طرافة. ويحكي النص (طيفورة بنت العطرد) عن بنت لها أضراس حداد قطعت يدي إمها وقدم أبيها، ويحكي (مرعزي وأبو حلزون البزاق) عن رجل له قدرة خرافية على البزاق وحسبك بهذا الحديث باعثًا على الغثيان، ويحكي النص (المذنب) عن ولد له ذنب خرافي بلغ من طوله أن يجره فيدمى ويتجمع عليه الذباب والنص حافل بالصور المقززة، ويتحدث النص (جحفلة وملطاط) عن زواج رجل بجنية ولكن النص ليس فيه من الفكاهة شيء، وفي حكاية (طسة وقربوس) حديث عن رجل ضخم الرأس دقيق الرقبة قصيرها وهو تصوير لمخلوقات لا يبعث على الطرافة أو الفكاهة، ويحكي النص (قردح بني عقيل) عن شخص يمشي لطول يديه مشية ذوات الأربع، ويحكي النص (حكاية أبي البرذعة وأم الدفتين) عن ناقة خرافية تلد بيضًا يخرج منها تماسيح سود وبيض تتكلم والتصوير في مجمله ليس فيه على غرابته الفكاهة وبالجملة النصوص فيها إغراب لكنه بعيد عن الفكاهة التي تنشرح لها الصدور وتأنس بها النفس وتبعث على النشاط.

ب - لا نجد استفادة من هذه النصوص في الجانب النظري الذي يلي هذه النصوص إذ نواجه بأمثلة مختلفة وشواهد نحوية على نحو ما نصادف في أي كتاب نحوي آخر. وكأن هذا الجزء النظري ملصق إلصاقًا. ولئن كان مما يشفع لهذا الإجراء أن الكتاب أعد ليبدأ الدارس بالجزء النظري ثم يطبق على النص داخل الفصل؛ فإن هذا غير ملائم لمن يريد الاستفادة من الكتاب على نحو مباشر.

ج - أن الدعوى التي قام عليها الكتاب وهي الانطلاق من نص فكاهي ينقضها هذا الجانب النظري المنفصل عن النص وهو جزء لا فكاهة فيه؛ فإن بدأ الدارس به فاته غرض الكتاب وإن أخره صار كالذي يقرأ كتابًا مختلفًا إذ لا صلة له بما قبله.

د - يعيب هذه النصوص المختارة للتطبيق أنها تمثل اللغة في مجال إيصالي واحد وهو الفكاهة، وهذا قد يوهم الدارس بضيق أفق العربية في التعبير عن جميع مناحي التفكير الإنساني؛ فينبغي للنصوص التي تدرس أن تكون معبرة عن موضوعات مختلفة اجتماعية واقتصادية وسياسية وعلمية وفلسفية وأدبية.

هـ - لم تسلم النصوص من التصرف الذي يظهر فيه افتعال الشواهد للظواهر المدروسة؛ بل قد يؤدي الأمر إلى أخطاء تركيبية كأن يجعل الاستفهام شرطًا. كما في هذا النص: ص٦٤ ص١٣.

«فخاطب نفسه متسائلاً أي حيلة يجب أن أحتال أحتلْ وأي عمل علي أن أعمله أعمل ليشفى ولدي».

وليس هذا من قبيل الاستفهام المجاب بفعل مجزوم لأن ذلك يقع فيه الجواب مختلفًا عن السؤال، ويكون السؤال طلبيًا لا يراد منه الاستعلام مثل: أين بيتك أزرك. فالمعنى أخبرني بمكان بيتك أزرك، أي إن تخبرني بمكان بيتك أزرك. وقوله متسائلاً ترجح كون الجملة بعدها جملة استفهامية لا شرطية.

٢ - *الجوانب النظرية* :

١ - ص٣٣ س٢٣ : ذكر هنا نوعي الجملة المختزلة فجعلهما : المؤولة تأويل حذف، وهي ما حذف من عناصره ما يمكن أن يؤتى به ، ومؤولة تأويل تقدير وهو ما لا يمكن أن يؤتى به . وهذا ما يطلق عليه النحويون الحذف الجائز والحذف الواجب أو ما يطلق عليه ابن عصفور الحذف اختصاراً والحذف اقتصاراً، وأرى أن المصطلحات النحوية واضحة وأدل على المراد .

٢ - ص٣٤ س٢٧ : قوله عن المصدر المنصوب مثل : «حمداً وشكراً» : «والواضح أن الذي ألجأهم إلى هذا التقدير إنما هو حرصهم على تعليل نصب المصدر والحال أن "شكراً" - مثلاً - ليس فيه أي معنى من معاني التأكيد؛ بل إن معناه ، بكل بساطة ، هو أشكرك أي إنه مصدر يقوم مقام الفعل» .

وفي الإجابة عن هذا ننقل نص ما جاء في شرح ابن عقيل للألفية وهو أحد مصادر هذا الكتاب، قال ابن عقيل : «المصدر المؤكد لا يجوز حذف عامله؛ لأنه مسوق لتقرير عامله وتقويته، والحذف مناف لذلك» . (شرح ابن عقيل، عناية النجار، ١/ ٣٩١) .

وقال أيضاً : «وقول ابن المصنف : إن قوله «وحذف عامل المؤكد امتنع» سهو منه ؛ لأن قولك : ضرباً زيداً - مصدر مؤكد ، وعامله محذوف وجوباً . كما سيأتي - ليس بصحيح، وما استدل به على دعواه؛ من وجوب حذف عامل المؤكد بما سيأتي - ليس منه، وذلك لأن ضرباً زيداً - ليس من التأكيد في شيء ؛ بل هو أمر خال من التأكيد، بمثابة : اضرب زيداً، لأنه واقع موقعه؛ فكما أن : اضرب زيداً لا تأكيد فيه - كذلك : ضرباً زيداً. وكذلك جميع الأمثلة التي ذكرها - ليست من باب التأكيد في شيء، لأن المصدر فيها نائب مناب العامل، دال على ما يدل عليه، وهو عوض منه، ويدل على ذلك عدم جواز الجمع بينهما، ولا شيء من المؤكدات يمتنع الجمع بينها وبين المؤكد .

ومما يدل أيضاً على أن ضرباً زيداً ونحوه - ليس من المصدر المؤكد لعامله - أن المصدر المؤكد لا خلاف في أنه لا يعمل ؛ واختلفوا في المصدر الواقع موقع الفعل : هل يعمل أو لا ؟ والصحيح أنه يعمل ؛ فزيداً في قولك : ضرباً زيداً - منصوب بضرباً على الأصح (شرح ابن عقيل، عناية النجار، ١/ ٣٩١) .

٣ - ص٣٨، س١ : قال : «ولعل الذي يستشقله المحلل في هذا الإعراب هو الوظيفة التي أسندت إلى المركب بحرف الشرط لأن (إفادة الشرط) ليست وظيفة إعرابية بل وظيفة براقماتية (أو تداولية) ولو كانت وظيفة إعرابية لما أعرب المركب باسم الشرط مبتدأ أو مفعولاً فيه ولحددت وظيفته أيضاً في إفادة الشرط» .

ومن العجيب أن يكون ذلك أمراً مشكلاً، فلو أنه استوحى من النحو العربي طريقته التي تذهب إلى أن الحروف لا تعرب لكان من السهل عليه القول إن هذا المركب بلا إعراب أو وظيفته الإعرابية صفر، وهذا لا يخل بالوظيفة التداولية .

٤ - ص٣٨، س٦ : وقال عن التركيب السابق (المركب بحرف الشرط) : «ومع تسليمنا بصعوبة ضبط وظيفة لهذا المركب فإننا نقترح مواصلة البحث في إمكان إلحاقه ببعض الوظائف الإعرابية المتداولة كالمفعول فيه، وذلك لأن (إن + جملة الشرط) يمكن تأويلها : "في حالة" .

فإذا قلت مثلاً "إن تجتهد تنجح "جاز التقدير : " في حالة اجتهادك تنجح" ويكون إعراب "إن تجتهد" مفعولاً فيه للمكان والزمان معاً على غرار "مع" عند سيبويه» .

وهذا التأويل الذي يذهب إليه غير مسلم لأنه معكوس، ذلك أننا لا يمكن أن نفهم الشرط من قوله «في حالة اجتهادك» إلا لأننا نؤوله بقولنا : إن تجتهد، ولا ينعكس الأمر فليس قولنا «في حالة اجتهادك» يلزم منها الشرط، إذ قد تفيد الإخبار الجازم، ولابد لتدل على الشرط من تنغيم يشعر بذلك وتضمن حرف الشرط؛ على بعد في ذلك .

ومن الخلل في هذا التقدير أن ما يقدر بقولنا في حال كذا هو الحال وليس المفعول فيه، إذ المفعول فيه ما تضمن الحرف (في) وحده بدون (حال)، إذ يمكن تحويل الجملة: في حالة اجتهادك تنجح إلى مجتهدًا تنجح.

والذي أدخل اللبس عليه هو أن الحال قيد كما أن الشرط قيد.

وهذا التقدير مخل بالمعنى الذي يساق له التركيب ويستخدم، فالإعراب فرع على المعنى ولا يكون صحيحًا إن ذهب بالمعنى، وهذا أمر دقيق أبدع النحويين في ملاحظته واعتباره وقامت عليه وجوه من تعدد الأعاريب، ولك في صنيع الزمخشري في الكشاف خير مثل لذلك. ولو تابعنا المؤلف في زعمه أن ذلك يصلح على تقديره مفعولاً فيه لصارت العبارة: في وقت اجتهادك تنجح. وليس في هذا اشتراط إذ المفهوم أن النجاح يحدث في وقت الاجتهاد لا أنه نتيجة له لاحقة به ومسببة عنه، ومثل هذا يقال عن تقدير الحال.

٥ - ص٣٨، س١٢: يعرض في هذا السطر التقسيم الرابع للجملة وهو: جملة بسيطة / وجملة مركبة. ويعرف البسيطة بأنها المشتملة على نواة إسنادية واحدة، وأن المركبة ما اشتمل على أكثر من نواة إسنادية، ومثل للجملة البسيطة بالجملتين: محمد مريض

جاء علي من السوق

ومثل للمركبة بالجملتين:

أن تصوموا خير لكم

يجتهد صالح لينجح.

ونحن نخالفه في مسألة البساطة والتركيب إذ نرى الاعتماد على مسألة الإسناد، فالجملة البسيطة هي المؤلفة من عنصرين من عناصر الإسناد كما مثل للجملة البسيطة، أي الجملة المؤلفة من مبتدأ وخبر والجملة المؤلفة من فعل وفاعل. وأما المركبة فهي المؤلفة من جملتين بسيطتين مثل الجملة الشرطية. أما الجملتان اللتان مثل بهما للجملة المركبة فهما عندنا من الجمل البسيطة؛ لأن التأويل يدل على ذلك:

وأن تصوموا خير لكم ---- ‹ وصيامكم خير لكم

ولسنا نرى فرقًا بين: (جاء علي من السوق) و(يجتهد صالح لينجح)، فهما مؤلفتان من: فعل+ فاعل + حرف جر+ مجرور (السوق، أن ينجح = للنجاح).

٦ - ص٥٣، س١٧ قوله: «أما الجملة الابتدائية أو المستأنفة (والاصطلاحان عندهم مترادفان) فهي نوعان».

وليس هذا القول على إطلاقه إذ ابن هشام هو الذي ذهب إلى ترادفهما، أما غيره فيفرقون بينهما تفريقًا. وانظر على سبيل التمثيل استخدام أبي حيان (البحر، ٣/ ٢٣٧) مصطلحي (الجملة الابتدائية) و(الجملة المستأنفة) بدلالتين مختلفتين ولا يمنع هذا أن يكون بينهما عموم وخصوص وهو ما جعل ابن هشام يوحد بينهما.

٧ - ص٥٤، س٢٩: قوله «وفي قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ يعد الملفوظ الواقع بعد القول (قالت اليهود) جملة ابتدائية أيضًا لأنه في أول نص».

ينبغي التنبيه هنا إلى أن هذه الجملة ابتدائية بالنسبة لنصها الذي هي جزء منه لكنها مع نصها جزء من الجملة السابقة فهي مقول القول، ولذلك فهي في محل نصب مفعول به، وهي بهذا الاعتبار ليست ابتدائية. وقد أشار إلى وجود نصين النص الأكبر والنص الأصغر ولكنه لم يوضح على الصورة التي وصفناها.

٨ - ص٥٥، س٢٦: عدد حروف الاستئناف وذكر منها: «إذن (غير العاملة)». وقال في ص٥٨، س١:

"إذن غير العاملة:

"إذن"، في نظر المدرسة التونسية، حرف استئناف مطلقًا. وفي رأينا أنها للاستئناف إذا لم تعمل النصب في الفعل المضارع الذي يليها حين تدخل على الجملة الفعلية نحو «إذا أظنك صادقًا» وهي لم تنصبه لأنه يدل على الحاضر لا المستقبل، أما إذا دل على المستقبل فإنها

تنصبه نحو إذا أكرمك، وتكون عندئذ جزءًا لا يتجزأ من الجملة التي تليها».

وفي هذا اضطراب فالمتصدرة هي العاملة؛ فإن تأخرت أو أدرجت ترك العمل بها، وأجاز حينئذ بعض النحويين أن تكتب بالألف (إذا). وقد وردت عند المؤلف بالنون ووردت بالألف في حال إعمالها وإهمالها وهذا مخالف لمذاهب النحويين ولست أرى فرقًا بين العاملة والمهملة في حال تصدرهما الجملة، ولا تجعل العاملة الجملة جزءًا مما قبلها كما زعم. قال القرشي: «أما حال إعمالها فأن لا يقع بعد حرف عطف، ولا يكون ما بعدها تتمة ما قبلها، وفعلها مستقبل كقولك في جواب من يقول: أنا آتيك غدا: إذن أكرمَكَ؛ لأنها حرف يقتضي المستقبل، فإذا دخل عليه ولم يكن مانع عمل النصب كـ «أن»، وأما حال إلغائها أن لا يكون فعلها مستقبلاً كقولك في الجواب: إذن أظنك كاذبًا، أو يكون ما بعدها تمام ما قبلها كقولك: أنا – إذن – أكرمكَ بالرفع؛ لأن المبتدأ استحق الفعل للخبرية قبل استحقاق «إذن» له، وكقولك إن تكرمني إذن أكرمْكَ، بالجزم جوابًا للشرط» (شمس الدين محمد بن أحمد بن عبداللطيف القرشي الكيشي، الإرشاد إلى علم الإعراب، جامعة أم القرى/ مكة المكرمة، ١٩٨٩م: ص٤٤٧.

٩ – ص٦٠، س٢٨: أشار إلى احتمال التباس جملة الاعتراض بالمركب بواو الحال، وذكر مقاييس تمييز لهما، ولكنه أهمل أهم مقياس وهو المعنى الذي تدل عليه جملة الحال وهو ما يقدر بـ «في حال كذا».

وقد يجوز تعويض الجملة الحالية بحال مفردة، ولا يجوز ذلك في جملة الاعتراض.

١٠ – ص٦٦، س١٢: أعرب ما يسميه المركب باسم الشرط مبتدأ وجواب الشرط هو الخبر، وذلك في مثل: من يجتهد ينجح.

وهذا الإعراب يناله الضعف في جهات:

أ – يعني القول بذلك أن الجملة مؤلفة من مبتدأ وخبر، وهذا سمة الجمل البسيطة لا المركبة كالجملة الشرطية، وهو يجعل الجملة جملة اسمية لافعلية وكونها فعلية هو المشهور في تصنيف الجملة الشرطية، وقد ناقشت هذه المسألة المشكلة في كتابي (الجملة الشرطية عند النحاة العرب، مطبعة الدجوي/ القاهرة، ١٩٨١م: ص١٦٥ – ١٧٣، ٤٧٠ – ٤٧٢).

ب – إعراب اسم الشرط مبتدأ يسوي بينه وبين الاسم الموصول:

من يجتهدُ ينجحُ: مبتدأ وخبر

جـ – قد تحتاج الجواب إلى الربط بالفاء والخبر ليس كذلك.

د – الجواب قد يتحقق أو لا يتحقق، وليس كذلك الخبر.

هـ – حدوث الجواب معلق على حدوث الشرط، وليس كذلك الخبر مع المبتدأ.

والذي يمكن قوله هنا: إن أسماء الشرط قدمت فتضمنت حرف الشرط ففقدت وظيفتها الأولى في الجملة قبل التقديم، فهي لا محل لها من الإعراب في رأيي، ولا ينقض هذا تصرف (أي) إعرابيًا فهو إعراب محمول معها قبل نقلها. وعلى هذا يمكن أن نعرب الجملة على هذا النحو:

من: اسم شرط مضمن الحرف (إن)، لا محل له من الإعراب.

يجتهد: فعل الشرط مجزوم بحرف الشرط المضمن. والفاعل ضمير مستتر يعود على الاسم المقدم.

ينجح: فعل جواب الشرط مجزوم بحرف الشرط المضمن. وفاعله مستتر يعود إلى الاسم المقدم.

١١ – ص٧٣، س٢٧: قوله عن (إذا): «ولكن بعض النحاة المحدثين عدوها اسم شرط والصواب، في نظرنا، أن تعامل معاملة الظروف غير الجازمة رغم ما تتضمنه من معنى الشرط».

الخلاف في عد (إذا) شرطية أو ظرفية قديم قبل المحدثين، ولكن تضمنها معنى الشرط هو الذي جعلها شرطية كما جعل الأسماء الموصولة أو أسماء الاستفهام الأخرى أسماء شرط. وانظر (الجملة الشرطية عند النحاة العرب، ص١٩٨ - ٢٣٠).

١٢- ص٧٧، س١٦ : تحليل الأداة الواردة في قوله تعالى ﴿إما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً﴾ (قرآن كريم) .

إمّا : إنْ + ما نافية .

قلت : ليست هذه نافية بل زائدة على نحو زيادتها مع (إذ : إذما)، و(حيث : حيثما) . وانظر قول ابن هشام في المغني وهو أحد مصادر الكتاب عن زيادة (ما) بعد أداة الشرط ١/ ٣٤٧، وانظر في التسميات المختلفة التي أطلقت على (ما) وليس منها كونها نافية (الجملة الشرطية عند النحاة العرب) ص١٨٢ حاشية ٣ .

١٣- ص٧٨، س٥ : المركب بحرف الشرط «لولا».

س١٨ : المركب بحرف الشرط «لوما».

الذي صرح بشرطية لولا الشلوبيني (التوطئة، ٢٣٦) أما غيره فليست عندهم بشرطية، فهذا ابن هشام يقول إنها تدخل على جملتين اسمية ففعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى، وبمنزلتها «لوما» (المغني، ١/ ٣٠٢، ٣٠٦) .

ص٧٨، س١٥ : قوله عن حذف خبر (لولا) : «وزعم بعض النحاة أن الخبر إذا لم يكن كوناً مطلقاً وجب ذكره نحو : (لولا قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت الكعبة) وفي هذا شك» .

لم يبين المؤلف سبب الشك ولا بواعثه على الرغم من وضوح الشاهد الذي استشهد به . وما ذكره من زعم بعض النحويين غير دقيق؛ فالمشهور عنهم أن الخبر إن كان مقيداً فإما أن يدل عليه دليل فيجوز ذكره وحذفه أو لا يدل عليه دليل فيجب ذكره (انظر : شرح ابن عقيل للألفية، عناية النجار، ١/ ١٧٩)، وانظر : ابن هشام، المغني : ١/ ٣٠٢) .

١٤- ص٧٩، س٣ : عدد حالات ارتباط جملة جواب الشرط بالفاء وفاته حالة هي : الشرطية، نحو : إن تأتني فإن تحدثني أكرمك . انظر (الجملة الشرطية، ٢٩١) . أما النوعان في (ط، ي) فيمكن عدهما شيئاً واحداً، فهما مثالان على الربط بالفاء لأن الجواب جملة اسمية .

١٥- ص٨٠، س٢٣ : مثل على حذف فعل الشرط بالجملة : «هذب سلوكك وإلا ندمت» . ولكنه أخطأ التقدير الصحيح فقال : «هذب سلوكك (وإن لم تفعل) ندمت» .

وليست هذه طريقة التقدير المعروفة؛ بل يجب المحافظة على أداة النفي، وعلى الفعل المحذوف فيقال : وإن لا تهذبها . انظر (الجملة الشرطية، ٣٣٨).

١٦- ص٨٠، س٢٥ : مثل لحذف الجزاء بالجملة : تندم إن لم تجتهد .

وقال : «ليس في هذه الجملة تقديم وتأخير والدليل على ذلك أن الفعل تندم مرفوع . وإنما جزاء الشرط فيها محذوف . وقد حذف لأنه ورد في الكلام ما يدل عليه وهو تندم» .

قلت : من الغريب أن يتابع النحويين في هذا المذهب وهو الذي يقدم كتاباً عن نحو المركبات إذ كان الأولى أن يفرق بين تصدر المركب الشرطي وتأخره، وقد بينت في كتابي (الجملة الشرطية عند النحاة العرب) أن في العربية نمطين من الجمل .

أحدهما : الجملة الشرطية الجزائية

أداة شرط + جملة فعلية بسيطة + جملة فعلية بسيطة .

الثاني : الجملة الخبرية المشروطة

جملة خبرية + أداة شرط + جملة فعلية بسيطة .

ويجدر التنبيه إلى أن الجملة في النمط الثاني يمكن أن تكون طلبية مشروطة، فليس ذلك خاصاً بالخبرية. انظر (الجملة الشرطية، ٣١٥، ٣٥٥).

١٧- ص٨٢: من المناشط على درس المركب الشرطي ما قد يفوت الغرض منه مثل رقم (٤ ,٥) ففي الأول يطلب منه كتابة رسالة إلى صديق فيها تفصيل شروط الإقامة عند عائلته، والثانية بيان الشروط التي يقتضيها النجاح في الدراسة في الخارج، وكل ذلك يمكن أن يتحقق وإن لم يستخدم المركب الشرطي فالشرط بالمعنى اللغوي لا يستوجب الشرط بالمصطلح النحوي، وكثير من الشروط التي نقرأها في العقود والمعاهدات والتعليمات خالية من التراكيب الشرطية؛ فكان عليه أن ينص على وجوب استعمال التركيب الشرطي في كتابته.

١٨- ص٨٣، س٣: ورد في النص: «متى يثب إليك رشدك يا ولدي تتيقن ....» المشهور في الاستخدام الآن ثاب الإنسان إلى رشده، وكذلك ورد في المعجم الوجيز، ولكن توجيه الاستخدام في هذا النص على معنى الفعل وهو الرجوع فالمعنى: متى يرجع إليك رشدك تتيقن..

١٩- ص٨٥، س١: المركب الإضافي

لم يبين المؤلف أن هذا المصطلح جديد في دلالته ويختلف عن المصطلح النحوي الذي يدل على نوع من الأعلام، وهي التي تكون مركبة تركيبًا إضافيًا مثل: عبدالله وعبدالرحمن.

٢٠- ص٩٢، س٦: قوله: «ولعل الحالة الوحيدة التي يحذف فيها المضاف إليه فعلاً هي أن تكون ياء المتكلم مضافًا إليها المنادى نحو: "ربِّ اغفر لي" وهو حذف صوتي لا نحوي والدليل على ذلك بقاء الجرّ».

ليست الحالة الوحيدة لأن المواضع التي يقول النحاة بحذف المضاف فيها خاصة بورود ألفاظ مبهمة لا تتضح إلا بإضافتها فورودها بدون مضاف إليه يقتضي تقديره لبيان المعنى. وقد عدد طاهر حمودة الألفاظ التي يحذف بعدها المضاف إليه (ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ٢١٢ - ٢١٤). أما حذف ياء المتكلم فقد بين طاهر حمودة أنه يمكن عده من تقصير الحركة الطويلة فلا حذف إذن (السابق، ٢١٣). أما قوله (بقاء الجر) فهو وهم فهذه الكسرة ليست علامة جر؛ بل هي حسب رأي النحويين حركة المناسبة التي تسبق ياء المتكلم وعلى رأي الأصواتيين المحدثين هي الحركة القصيرة بعد تقصيرها ولا وجود لكسرة قبل ياء المد عندهم إذ ياء المد حركة. ولعله أراد بالجر الكسر توسعًا.

٢١- ص٩٣: على الرغم من الإحاطة الشاملة بموضوع الإضافة فقد فاته ذكر علاقة الإضافة بالتثنية والجمع؛ إذ قد يكتسب الاسم التثنية بإضافته إلى المثنى مثل: أشهر عاشقين عند العرب هما قيس وليلى. وقد تناول هذا بالبحث أحمد حاطوم (اللغة ليست عقلاً، ص٣٨-٧٠).

٢٢- ص٩٤، حاشية ٢١: انتصر لرأي ابن هشام وهو أن (كلما) كلمة واحدة؛ ولكنه لم يعلل لذلك، ولم يصنف (ما)، ويظهر لي أنها زائدة كافة تهيئ لكل أن تدخل على الفعل.

٢٣- ص٩٨، س٩: يعرف النعت بأنه مكمل لمتبوعه ... إلخ؛ ولكنه لا يشرح بعض المصطلحات مثل (تابع). فإن كان يحتج بمعرفة الدارس لهذا قبل فالتعريف لا حاجة به إليه هنا. وكان من الأولى وهو المعني بنحو المركبات أن يبين عناصر المركب، وأن يعرف هذا المركب فيقول هو ما تألف من منعوت ونعت، ثم يبدأ إن شاء بتعريف المنعوت فالنعت.

٢٤- ص٩٩، س٣ من الأسفل: عدد في هذا المدخل حالات مخالفة النعت للمنعوت وفاته المخالفة في العدد إذ قد يأتي الجمع بعده نعت مفرد، مثل قوله تعالى: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾.

٢٥- ص٩٨، س١٥ : ذكر تعريف النعت السببي ومثل له، ثم قال : «هكذا عرفه النحاة العرب القدامى. ولكنه في نحو المركبات مجرد جزء من مركب شبه إسنادي».

تحتاج هذه العبارة إلى ما يزيدها وضوحًا كأن يقال بعد (شبه إسنادي) : وهذا المركب هو النعت.

ولكن هذا المذهب بحاجة أن يفسر تبعية هذا اللفظ من حيث الإعراب، وهذا خلاف ما بين النعت السببي والنعت بالجملة فالجملة في محل إعراب أما النعت السببي فمعرب يظهر عليه الإعراب. وهذا المذهب بحاجة إلى التنبيه إلى أن المركب النعتي مؤلف من : اسم المنعوت + مركب شبه إسنادي، فنحن أمام مركب كبير ومركب صغير.

٢٦- ص٩٨، س٧ من الأسفل : ذكر هنا أغراض النعت مع أنه أعرض عن ذكر أغراض الإضافة معتذرًا بأنها تدخل في باب علم المعاني : انظر (ص٩٥، س١٠).

ولم يفرق بين الأغراض الأصلية والفرعية، وأهمل من الفرعية غرضين الإبهام، نحو : تصدقت بصدقة كثيرة، والتفصيل نحو : زارني رجلان نجدي وحجازي.

٢٧- ص٩٩، س٢١ : ذكر هنا نوعًا من النعت وهو نعت بالجملة، وكان يحسن به أن يسرد ما ينعت به متواليًا في موضع بدلاً من أن يفرقه، إذ ذكر منه النعت بالجامد والنعت بالمصدر وبالجملة الإنشائية في ص١٠١، وفاته من الأنواع النعت بشبه الجملة (الجار والمجرور، الظرف).

٢٨- ص١٠١، س٢ من الأسفل : اطرد استخدامه لمصطلح النعت إلا في هذا الموضع، إذ قال : الوصف بمركب إسنادي إنشائي.

٢٩- ص١٠٧، س٦ : عرف البدل ولكنه لم يعرف المركب البدلي أو يبين مكوناته.

٣٠- ص١٠٩، س٥ قوله :

«٢- بدل المضمر من المظهر :

رأيت زيدًا إياه.

٣ - بدل المضمر من المضمر :

رأيته إياه».

وهذا مخالف لما نص عليه ابن مالك في التسهيل، قال ابن عقيل :

«ولا يبدل مضمر من مضمر - نحو : رأيتك إياك. ولا من ظاهر - نحو : رأيت زيدًا إياه. وما أوهم ذلك جعل توكيدًا - كالمثالين السابقين. قال المصنف : ومثلت بهما جريًا على عادة المصنفين، والصحيح عندي أن نحو : رأيت زيدًا إياه لم يسمع في كلام العرب، نثره ونظمه، ولو استعمل كان توكيدًا». (المساعد على تسهيل الفوائد، ٢/ ٤٢٩ - ٤٣٠).

٣١- ص١١٠ : فاته أن يبين أمرًا مهمًا وهو الفرق بين البدل، وما يسمى عند النحويين بعطف البيان.

٣٢- ص١١٦، س٥ : قوله : «الحالة الأولى : توكيد ضمير متصل بضمير منفصل نحو : نجحت أنت. ويشترط في الضمير المؤكد به أن يكون ضمير رفع لا ضمير نصب لأنه إن كان ضمير نصب أعرب بدلاً نحو : رأيتك إياك».

في قوله مخالفة للمشهور من أقوال النحويين في مسألتين الأولى قوله أعرب بدلاً، وقد بينت في الملاحظة ٣٠ (ص ١٠٩ س٥) خطأ مذهبه، والمسألة الثانية توهمه أن ضمير الرفع المنفصل لا يؤكد به إلا ضمير الرفع المتصل، قال ابن عقيل : «يجوز أن يؤكد بضمير الرفع المنفصل كل ضمير متصل : مرفوعًا كان نحو : قمت أنت، أو منصوبًا، نحو : أكرمتني أنا، أو مجرورًا، نحو : مررت به هو، والله أعلم». (شرح ابن عقيل للألفية، عناية النجار، ٢/ ١٦٤- ١٦٥).

٣٣- ص١٣١، حاشية ١٦ : قوله عن إعمال اسم التفضيل مثل : محمد أكرم خلقًا : «لم يشترط النحاة القدامى تطلب اسم التفضيل غير المقترن بـ «ال» وغير المتبوع بـ «من» تمييزًا ليصح إعماله (انظر : ابن يعيش :

شرح المفصل ٦/ ٩٧)، لكن المدرسة التونسية تعد توفر فضلة (التمييز هنا) ضرورياً لقيام اسم التفضيل مقام الفعل وإلا فهو مجرد مفردة» .

ولا نجد بالرجوع إلى الموضوع المحال إليه من شرح المفصل ما يفيد ما نسبه إلى النحويين؛ بل الموجود أن (من) قد تذكر أو تقدر قال ابن يعيش : «اعلم أنهم قد يحذفون (من) من أفعل التفضيل إذا أريد به التفضيل ومعنى الفعل وهم يريدونها فتكون كالمنطوق بها نحو زيد أكرم وأفضل فلم تأت بألف ولام كما لم تأت بها مع من لأن الموجود حكمًا كالموجود لفظًا ومنه قوله عز وجل ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي أخفى منه أي من السر «(شرح المفصل ، ٦/ ٩٧)، وقال في موضع آخر : «وإن حذفته وأنت لا تريده صرفته [أفعل التفضيل] وكان كسائر الأسماء نحو أفكل لأنه إنما يكون صفة إذا كان معه (من)» (شرح المفصل ، ٦/ ٩٨) .

والأمثلة التي يمثلونها لإعمال اسم التفضيل ملتزم ذكر من معه .

٣٤- ص١٤١، س٢٢ : الكلام على (أي) إعرابًا وبناءً مقتضب لا يفيها حقها، وكذا في الحاشية (٢٥) . وليس صحيحًا ما نسبه إلى سيبويه من أنها تبنى على الضم إذا أضيفت ؛ إذ يشترط سيبويه مع هذا حذف صدر صلتها (الكتاب ٢/ ٤٠٠، وانظر : شرح ابن عقيل، عناية النجار، ١/ ١٢١) .

٣٥ - ص١٤١، س٢٣ : استخدم مصطلح اسم الموصول والصحيح الاسم الموصول؛ إذ الموصول نعت للاسم .

٣٦- ص١٤٩، س٢ : نقل عن ابن يعيش نصاً فيه أن حرف الجر والاسم المجرور في موضع نصب بالفعل، وقال إن ذلك يدل على تفطن هذا النحوي القديم إلى أن الجار والمجرور يؤلفان مركبًا له وظيفة واحدة .

والصحيح أن سيبويه قد سبق ابن يعيش إلى ذلك قال : «ولو قلت : مررت بعمرو وزيدًا لكان عربيّاً، فكيف هذا ؟ لأنه فعل والمجرور في موضع مفعول منصوب» (الكتاب، ١/ ٩٤) .

٣٧- ص١٤٩، س٢٦ قوله : «حروف تكون حرفًا وفعلاً: نحو حاشا ، عدا» انظر : التعليقة القادمة .

٣٨- ص١٥٠، س١ : التقسيم الرابع (طبقًا لمدى شيوع الحرف) ، وذكر فيه إسقاط ابن هشام لأربعة حروف جر لشذوذها .

والعلة في صنيع ابن هشام أنه يؤلف كتابًا تعليميًا فحسن منه هذا الإسقاط، وأحسب أن هذا الكتاب هو أيضًا كتاب تعليمي ؛ لذا كان من الأولى الإشارة إلى هذه الحروف والحروف التي مر ذكرها في التعليقة السابقة في الحاشية .

٣٩- ص١٥١، س٤ من الأسفل : مثل لوظائف بعض المركبات بحروف الجر بالجملة :

ذهب صالح إلى تونس .

ويرى أن المركب (إلى تونس) يكون ظرفًا إن دلت إلى على الاتجاه، ويكون مفعولاً به إن دل (ذهب إلى) على الفعل قصد، والنحويون يعبرون عن ذلك بما هو أدق وأظهر وهو التضمين فالفعل قد يضمن معنى فعل غيره ولكنه بسبب هذا التضمين يأخذ حكمه تعدية ولزومًا، ولذلك إن أريد معنى الفعل قصد في ذهب وجب حذف حرف الجر فيقال : (ذهب صالح تونس)، ولا يصح الزعم بالتضمين مع وجود حرف الجر إذ لا دليل على ذلك ولابد في هذا أن يصار إلى الأصل . ومثل هذا يقال عن المثال الثاني في الفقرة (ب) ص١٥٢، س٣. وانظر في درس التضمين (الشمسان، قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي، ١٦٠ - ١٧٢) .

٤٠- ص١٥٢، س٨ : قوله : «ج - أشرف الرجل على الموت»

لم يذكر النحاة العرب القدامى «أشرف على» من بين أفعال المقاربة والحقيقة أنه بمعنى (كاد).

لذلك فإن (الرجل) اسم أشرف و (على الموت) خبره» .

وما يذهب إليه فيه تجاهل لطبيعة أفعال المقاربة ووظيفتها، فهي أفعال مساعدة تأتي بصحبة أفعال أخرى لتدل على قرب حدوثها، ويمكن أن تحذف فيعود التركيب إلى الابتداء والإخبار فقولك : كاد الرجل يموت، تصير بعد الحذف : الرجل يموت . وليس يمكن هذا في مثاله.

وأهم من ذلك أن الدلالة على قرب حدوث الفعل في مثاله مكتسبة من السياق لا التركيب النحوي المصطلح عليه، ولو فعل النحويون فعله لضاعت الحدود بين التراكيب، وهذا الذي يذهب إليه منزلق يقع فيه بعض اللغويين المحدثين الذين ينطلقون من الدلالة ويضربون صفحًا عن التراكيب ووظائفها وحدودها.

ودلالة (أشرف على) على (كاد) في الأصل مجازية، ومن الحقيقة القول: أشرف الرجل على الجبل.

وإن يرد الاعتماد على المعنى؛ فإن عليه أن يضم إلى أفعال المقاربة أفعالاً كثيرة مثل: قارب الرجل على الانتهاء من عمله، اقترب الرجل من الموت، أزفت ساعة الرجل، دنت منيته، حانت وفاته .

٤١- ص١٥٢، س٥ من الأسفل: قوله: «كما أن المجرور فيه ليس متعلقًا بحرف الجر» والصحيح أن التعلق يكون بالفعل لا بالحرف إلا إن كان يريد بالباء السببية أي بسبب حرف الجر.

وفاته في هذا الموضع الإشارة إلى القسم الثالث من أقسام حروف الجر وهو الحرف الشبيه بالزائد مثل (ربّ).

٤٢- ص١٥٣ : فاته من مباحث حروف الجر استعمال بعضها أسماء مثل (عن) و(على) و(الكاف)، (مذ، ومنذ). وفاته ذكر زيادة (ما) بعد الحروف (من وعن والباء) دون كف عن العمل وبعد (رب، والكاف) مع كفهما عن العمل.

٤٣- ص١٦٠، س٩ : الكلام على العطف المباشر وغير المباشر أورد فيه مذهب أبي زيد الأنصاري إلى العطف بدون أداة مثل : أكلت خبزًا لحمًا تمرًا، أي خبزًا ولحمًا وتمرًا، وذكر مخالفة غيره له، ثم ذكر متابعة المدرسة التونسية لذلك .

ولكنه مثل بقوله : رأيت ولدًا طويلاً نحيلاً.

وهذا المثال مختلف عن مثال أبي زيد إذ المثال هنا من قبيل تعدد النعت، وليس من قبيل العطف بدون أداة عطف وقد يجب عطف النعت بالواو، وقد لا يجب حسب التفصيل الوارد في كتب النحويين (انظر شرح ابن عقيل : ٢/ ١٥٠ - ١٥١)، قال ابن عقيل : «إذا تكررت النعوت، وكان المنعوت لا يتضح إلا بها جميعًا وجب إتباعها كلها؛ فتقول : مررت بزيد الفقيه الشاعر الكاتب» (شرح ابن عقيل : ٢/ ١٥١) .

أما حذف حرف العطف فقد تابع الأنصاري الفارسي وابن عصفور وابن مالك (انظر : أبوحيان، ارتشاف الضرب، ٢/ ٦٦١) .

٤٤- ص١٦٢ : أهمل المؤلف الحديث عن عطف البيان.

٤٥- ص١٦٢، س٩ : قوله : «لم نتعرض إلى معاني حروف العطف لأنها تدخل في نظرنا في باب علم المعاني».

وهذا القول فيه إجحاف بحق الدرس النحوي وخلط بين معاني الأدوات والتراكيب في مستويين أحدهما الإشاري الذي هو جزء من النحو والبلاغي الذي هو موضوع علم المعاني، وهذه المعاني لازمة لإجراء التدريب الثاني من المناشط إذ لا يمكن استعمال حروف العطف بدون معرفة لوجوه استعمالها، وهذه الوجوه التي يهتم بها النحو، ومثال ذلك : «أعجبني زيد وكرمه» فالنحوي يعرف للواو هنا معنى التشريك أي معناها الوظيفي في التركيب أما عند البلاغي «فإن

العطف فيه للدلالة على أن لذات زيد أيضًا مدخلاً في أن يتعجب منه فلا يكون مثل أعجبني زيد كرمه، وهو على أسلوب قوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ أي رسول الله، ولما كان صلوات الله عليه من الله في قوة من الاختصاص بمكان، كان إيذاؤه إيذاءه» (الطيبي، التبيان في البيان، ١٠٢). وانظر لمزيد من معالجة هذه المسألة: عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية (دار النهضة العربية / بيروت، ١٩٨١م).

٤٦- ص١٦٨، س١١: يورد هنا مثلاً لمركب اسمي بالاستثناء:

جاء الأولاد إلا صالحًا

ويورد مذهب المدرسة التونسية التي تعد (الأولاد إلا صالحًا) فاعلاً للفعل (جاء)، ويرد هذا لأنه حسب قوله لا ينسجم مع المفهوم الصحيح للاستثناء؛ ولكنه يقترح إعرابًا غريبًا في: ص١٦٩، س١٢ إذ يعد (إلا صالحًا) حالاً. ولست أدري كيف ينسجم هذا مع المفهوم الصحيح للاستثناء؛ إذ كيف تخرج الحال أحد أفراد الفاعل، وكيف يكون التقدير في جملة مثل:

ما جاء الأولاد إلا صالحًا

فهل يجوز أن نقدر: ما جاء الأولاد ينقصهم صالح دون أن ندخل في دائرة أخرى من التأويل، كأن نقول إن ما جاء تعني (تخلف). وواضح أن هذا التقدير لا يثبت لصالح مجيئًا بخلاف الجملة.

وبالجملة فهذه التقديرات ليست خيرًا من تقدير النحويين القدماء الذين جعلوا إلا بمعنى الفعل استثني.

ولست أذهب مذهب المدرسة التونسية بل أميل إلى التمسك بأقوال النحويين العرب إلى أن يظهر ما هو أفضل منها؛ ولكني أجد لمذهبهم وجهًا سائغًا ينسجم مع مذهبهم في المركبات، ذلك أن أداة الاستثناء والاسم بعدها يؤلفان قيدًا على المستثنى منه كالقيد الذي يكون بالنعت أو الحال أو العطف أو الإضافة. ولذلك ساغ في عرفهم أن يكون الاسم المقيد بنعته مركبًا فاعلاً، وهنا يسوغ أن يكون الاسم المقيد بما استثني منه مركبًا فاعلاً.

٤٧- ص١٧٠، س٢ من الأسفل: أعرب (غير صالح) حالاً. وهذا موافق لمذهبه الذي رددناه في الملاحظة ٤٦ ص١٦٨، س١١.

٤٨- ص١٧١، س٣: أعرب (سوى علي) ظرف مكان متابعًا في ذلك بعض النحويين والتقدير عنده:

جاء الأولاد سوى علي: مكان علي.

وأحسب أن هذا التقدير لا يعطي الجملة ما فيها من الاستثناء، ولذلك فأنا مع الزجاج وابن مالك في أنها مثل غير وأنها للاستثناء بدليل إمكان إحلال غير محلها. (انظر مذاهب النحويين في ارتشاف الضرب لأبي حيان، ٢/٣٢٦).

٤٩- ص١٧١، س٣ من الأسفل: قدم استعمال (خلا وعدا وحاشا) حروفًا في الاستثناء وأخر استعمالها أفعالاً، والأولى أن يعكس ذلك لأن استعمالها أفعالاً هو الأشهر وهذا ما قرره ابن مالك في الألفية قال:

واستثن ناصبًا بليس وخلا
وبعدا، ويكون بعد (لا)
واجرر بسابقي يكون إن ترد
وبعد (ما) انصب، وانجرار قد يرد
وحيث جرا فهما حرفان
كما هما إن نصبا فعلان

٥٠- ص١٧١، س١٤: قوله عن الاستثناء بغير: «أما إذا كانت مرفوعة فهي صفة للاسم الذي قبلها ولا وجود في الجملة لاستثناء نحو:

لم يأت أحد غيرُ صالح» وقد أحال في ذلك إلى: المغني لابن هشام. والذي في المغني مخالف لما جزم به وهذا نصه: «والثاني: أن تكون استثناء؛ فتعرب بإعراب الاسم التالي (إلا) في ذلك الكلام؛ فتقول:

(جاء القوم غير زيد) بالنصب، و(ما جاءني أحدٌ غيرُ زيد) بالنصب والرفع، وقال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر﴾ يقرأ برفع غير: إما على أنه صفة للقاعدون لأنهم جنس، وإما على أنه استثناء وأبدل على حد: ﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ ويؤيده قراءة النصب وأنّ حُسنَ الوصف في ﴿غير المغضوب عليهم﴾ إنما كان لاجتماع أمرين الجنسية والوقوع بين (الضدين)، والثاني مفقود هنا، ولهذا لم يقرأ بالخفض صفة للمؤمنين إلا خارج السبع، لأنه لا وجه لها إلا الوصف. وقرئ ﴿ما لكم من إله غيره﴾ بالجر صفة على اللفظ، وبالرفع على الموضع، وبالنصب على الاستثناء، وهي شاذة، وتحتمل قراءة الرفع الاستثناء على أنه إبدال على المحل مثل (لا إله إلا الله)» (ابن هشام، مغني اللبيب، ١/ ١٧٠ - ١٧١) .

٥١- ص١٧٢، س٢٢ : أعرب (ليس صالحًا) و(لا يكون صالحًا) في الجملتين:

جاء الطلبة ليس صالحًا

جاء الطلبة لا يكون صالحًا

على أنهما جملتين استئنافيتين أو في موضع الحال.

وليس هذا موفقًا لأن الجملة الاستئنافية منقطعة عما قبلها، ويمكن الاستغناء عنها دون إخلال بالمعنى والاستثناء يؤلف مع ما قبله جملة مترابطة، وأما الحالية فقد سبق أن بينت رأيي في مذهبه في التعليق على (ص١٦٨، س١١). وهو متابع في هذا ما ذكره ابن هشام في المغني مما هو موضع نظر عندي.

والرأي ما ذهب إليه عبدالكريم الزبيدي في بحثه القيم عن هذه الأفعال قال: «وعلى هذا الأساس أبني رأيي في هذه الألفاظ (عدا)، (خلا)، (حاشا)، (ليس)، (لايكون)، فأرى أن هذه الألفاظ عندما استعملت في الاستثناء خرجت عن الفعلية، لأنها أفعال في الأصل، كما بينت سابقًا، وحملت تارة على (إلا)، وتارة على (غير)». (دراسة نحوية في علاقة بعض المسائل الخلافية بكتاب سيبويه، ١٥٠) .

٥٢- ص١٧٢، س٥ من الأسفل: أورد (لا سيما) على أنها من أدوات الاستثناء وتجاهل الخلاف في عدها منها بل رجحان القول إنها ليست للاستثناء؛ وهذا واضح فيها إذ لا يحل محلها (إلا). قال أبوحيان: «وعد جماعة من النحاة منهم الأخفش وابن حاتم، والنحاس في أدوات الاستثناء (لاسيما) لما رأوا ما بعدها مخالفًا لما قبلها بالأولوية التي لما بعدها، والصحيح أنها ليست من أدواته وإنما ذكرها سيبويه في باب (لا) التي لنفي الجنس، والمشهور والمعروف أن ما بعد (لاسيما) أولى بالمسند الذي لما قبلها من المسند إليه» (ارتشاف الضرب، ٢/ ٣٢٨) .

٥٣- ص١٨٣، س١٥: قوله «حكم التمييز، في الأصل، النصب إلا أنه قد يجر ب (من)».

ولم أجد من النحويين من نص على هذا سوى الرضي قال: «ونصب التمييز نص على كونه مميِّزًا، وهو الأصل في التمييز، بخلاف الجر؛ فإنه علم الإضافة» (شرح الكافية، عناية: يوسف حسن عمر ٢/ ٥٧).

ولكني أرى أن الأصل في التمييز أن يجر بـ(من)، ومنه ما يضاف إليه لتضمن الإضافة معنى (من)، فإذا تعذر ذلك صير إلى النصب. فالتمييز المنصوب إما عن قطع الإضافة بما يمنعها أو عن حذف حرف الجر (من)، مثال ذلك:

اشتريت خاتمًا من حديد ---> اشتريت خاتم حديد ---> اشتريت خاتمًا حديدًا.

ولذلك اشترطوا نصب تمييز المقادير بعد مفرد تام، يكون منتهيًا بما يمنع الإضافة وهو التنوين ونونا التثنية والجمع والإضافة والتركيب. قال الجندي: «إنما تم بهذه الأشياء لأنه إذا لم يكن فيه أحد هذه الأشياء كان مستهدفًا للإضافة ومستدعيًا للإتمام بها؛ لأن المضاف مع المضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة، فبورود أحد هذه

الأشياء انسد طريق الإضافة وأزيح بابها فيتم» (الإقليد، شرح المفصل – مخطوط – ١/ ٤٠٨) .

ومما يدل على أن النصب عن حذف الجار التمييز في: (ويحه رجلاً، ولله دره فارسًا، وحسبك به ناصرًا)، قال الجندي: «فانتصاب (رجلاً، وفارسًا، وناصرًا) على التمييز؛ لأن التقدير: (من رجل، ومن فارس، ومن ناصر) وكل شيء حسن فيه (من) للبيان فهو تمييز» (الإقليد، شرح المفصل – مخطوط – ١/ ٤٠٩) .

ولعل مما يستأنس به في أن النصب في التمييز ليس هو الأصل؛ تعبير سيبويه بأن ذلك فرار إلى النصب، قال: «وإنما فررت إلى النصب في هذا الباب كما فررت إلى الرفع في قولك: بصحيفة طينٌ خاتمًا؛ لأن الطين اسم وليس مما يوصف به، ولكنه جوهر يضاف إليه ما كان منه، فهكذا مجرى هذا وما أشبهه» (الكتاب، ٢/ ١١٧) .

٣ – أخطاء تحريرية:

أ – أخطاء نحوية:

١ – ص٣٣، س٢١، قوله: «فأنت ليس فاعلاً بل توكيدًا للضمير المستتر» .

والصواب أن يقول: «فأنت ليس فاعلاً بل توكيدٌ للضمير المستتر»؛ لأن العطف بـ (بل) هنا يوجب نقض النفي بليس فتوكيد ليس معطوفًا على (فاعلاً)، بل هو معطوف على الجملة فهو في التقدير خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو. ولا يصح الإبقاء على النصب إلا على مذهب المبرد وهو إرادة النسق، وهذا غير مراد هنا إذ ليس المراد نفي التوكيد عن (أنت) .

٢ – ص٤٢ س١٩، قوله: «تتفق وكثيرًا من الأفكار التي أسسوا عليها نظرياتهم». والصواب: توافق كثيرًا...؛ والسبب أن الفعل (تتفق) لا يسند إلى المفرد؛ بل يقال: الرجلان يتفقان، وقد يستخدم هذا الفعل بمعنى صادف فيسند إلى مصدر مؤول: اتفق أن جاء زيد. وليس هذا مرادًا في السياق المذكور. على أن المعجم الوجيز لمجمع القاهرة أورد: اتفق مع فلان وافقه وكذا في أقرب الموارد. ولكني أرى أن الفعل متى كان بمعنى (تفاعل) الذي يقتضي فاعلين أو أكثر وجب أن يسند إلى غير الواحد.

٣ – ص٥٩، س١٢، قوله: «إلا أنّ ليست أداة بل أداتين هما (إلا) و(أن)» والصواب: بل أداتان. والعلة ذكرتها أعلاه في تصحيح: ص٣٣ س٢١ .

٤ – ص٥٩، س١٧، قوله: «لما كانت حرف موصول». والصواب: لما كانت حرفًا موصولاً. لأن موصولاً صفة للحرف، إذ لا يصح تقدير اللام هنا فيقال: حرف للموصول.

٥ – ص٦٤، س٢٠، قوله: «وإن تفرج عن كربتي...». والصواب: وإن تفرج عني كربتي. لأن تفرج يتعدى إلى الكربة بنفسه.

٦ – ص٩٧، س١٥، قوله: أهذا الذي تزوجته رجل أم طفل؟ والصحيح أن يقول: أرجل هذا الذي تزوجته أم طفل؟ لأن ما يأتي بعد (أم) يجب أن يعادل ما بعد الهمزة.

٧ – ص١٦١، س١٨: مثل للعطف بـ (بل) على خبر (ما) الحجازية: «ما زيد قائمًا بل واقفًا هذا عطف على اللفظ».

مركب بالعطف خبر «ما».

وهذا النصب غير جائز إذ الوقوف ليس من خبر (ما) فما نفت الوقوف أما القعود فلم تنفه وليست متسلطة عليه، قال ابن عقيل: «إذا وقع بعد خبر "ما" عاطف فلا يخلو إما أن يكون مقتضيًا للإيجاب أو لا. فإن كان مقتضيًا للإيجاب تعين رفع الاسم الواقع بعده؛ وذلك نحو: (بل) و(لكن)؛ فتقول: ما زيد قائمًا لكن قاعد أو بل قاعد؛ فيجب رفع الاسم على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: لكن هو قاعد وبل هو قاعد، ولا يجوز نصب (قاعد) عطفًا على خبر (ما)؛ لأن (ما) لا تعمل في الموجب. وإن كان الحرف

العاطف غير مقتض للإيجاب كالواو ونحوها جاز النصب والرفع، والمختار النصب، نحو: مازيد قائمًا ولا قاعدًا، ويجوز الرفع فتقول: ولا قاعد، وهو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: ولا هو قاعد» (شرح ابن عقيل، عناية النجار، ١/٢١٧).

٨ - ص١٦١، س٢١: مثل للعطف بـ(بل) على خبر (ما) الحجازية: «ما زيد بقائم بل واقفًا هذا عطف على المحل ...». وهذا النصب غير جائز لما بينته في التعليقة السابقة.

٩ - ص١٦٦، س٢٠: ورد في النص: «وهب الناس ليس هو ...».

س٢٣: ورد في النص: «فقد الرجال لا يكون هو ...». والصواب: وهب الناس ليس إياه ... فقد الرجال لا يكون إياه.

جاء في (تاج العروس للزبيدي، مادة: ليس): «ولك أن تقول: جاءني القوم ليسك، إلا أن المضمر المنفصل هنا أحسن، كما قال الشاعر:

ليت هذا الليل شهر ... لا نرى فيه عريبا
ليس إيـاي وإيـا ... ك ولا نخشى رقيبا

... قال ابن الأثير: «وفي (ليسك) غرابة فإن أخبار (كان) وأخواتها إذا كانت ضمائر؛ فإنما يستعمل فيها كثيرًا المنفصل دون المتصل، تقول: ليس إياي وإياك».

ب - أساليب:

١ - نجد بعد الأساليب القريبة من لغة العامة مثل قوله: «وهو اتجاه غير مقنع بالمرة» ص٣٧، س١٧.

٢ - ص١٣٨، س٥ من الأسفل: قوله: «تشتمل صلة الموصول الاسمي عادة على ..». لا ضرورة لكلمة «عادة» هنا فالكلام يستقيم بدونها.

٣ - ص١٤٧، س١٣، قوله: «يحبذ مثل هذه الفرص». الأجود والأفصح في نظري أن يقول: يحب مثل هذه الفرص؛ وذلك لأمرين أحدهما أن هذا الفعل ليس قديمًا وضعًا بل هو مأخوذ من فعل جامد هو (حبذا) المنحوت من (حبّ) و(ذا)، والآخر أن الفعل (يحبذ) يستخدم بمعنى (يفضل)، ولا تفضيل ثمَّ.

٣ - ص١٦٠، س١٧، قوله: «تبنت مفهوم العطف ...».

استخدام الفعل (تبنى) شائع في لغة الصحفيين وغيره أفضل منه لأن التبني هو اتخاذ الشخص ابنًا. وهو ترجمة حرفية للفعل (adopt) الذي يعني في الأصل تبني الولد ثم استعير للدلالة على الاتخاذ والاختيار. وفي العربية مقنع عن طريقة الأعاجم في لغاتها.

ج - أخطاء مطبعية:

١ - ص٥٥، س٢٢: سواءأ دخل ---> سواء أدخل.

٢ - ص٦١، س٦: في قوله: «بلغت - وقد انحدرت الشمس إلى الغروب - مدينة سوسة» جعل الجملة الحالية بين شرطتين - -، والمألوف أن يستعمل هذا للجمل المعترضة؛ فإن كان الغرض تمييزها فلا حجة إذ قد ميزها بخط تحتها.

٣ - ٣٨، س١٥: رقم هامش (٧٣) لا مقابل له في الحاشية.

٤ - ص٧٤، س٢٨: فعله ---> فاعله

٥ - ص٨٣، س٢: إنّ ---> فإنْ.

٦ - ص٨٥، س٢ من الأسفل: منها ---> منهما.

٧ - ص٨٨، س٦: كاتبُ للقاضي ---> كاتبٌ للقاضي.

٨ - ص٩٧، س١٥: متساءلة ---> متسائلة.

٩ - ص٩٨، س٥: الأصغر ---> الأصفر.

١٠ - ص١٠٠، س٢: حجر ---> جحر.

خَرَب ---> خَرِب.

١١ - ص١٤٢، س١٧: متركيبين ---> من تركيبين.

١٢ - ص١٤٦، س١١: فأنتهزت ---> فانتهزت.

١٣ - ص١٤٦، س٢٠: وايتي ---> وأتي.

١٤ - ص١٥١، س٣ من الأسفل: إذ ---> إذا.

١٥- ص١٥٩، س٦ : بواسطة ---> بوساطة .

١٦- ص١٦٥، س١٨ : إشفائه ---> شفائه .

١٧- ص١٨٦، س١١ : وردت كلمة (مركّب) مقسومة في سطرين.

المصادر والمراجع

الإستراباذي ؛ رضي الدين محمد بن الحسن (٦٨٦هـ)/ شرح الرضي على الكافية ، بعناية : يوسف حسن عمر (جامعة قاريونس / ليبيا، ١٩٧٣م) .

الجندي ؛ تاج الدين أحمد بن محمود بن عمر (٧٠٠هـ)/ الإقليد : شرح المفصل، تح. محمود أحمد علي كته الدراويش (رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر/ القاهرة ، ١٩٨٤م) .

حمودة ؛ طاهر سليمان / ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي (الدار الجامعية / الإسكندرية، ١٩٨٣م) .

حاطوم ؛ أحمد / اللغة ليست عقلاً : من خلال اللسان العربي (دار الفكر اللبناني / بيروت ، د. ت).

أبو حيان ؛ أثير الدين محمد بن يوسف (٧٤٥هـ)/ ارتشاف الضرَب من لسان العرب، تح. مصطفى أحمد النماس (ط١ ، مطبعة المدني / القاهرة ، ١٩٨٧م) .

البحر المحيط ، تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض (ط١ ، دار الكتب العلمية / بيروت، ١٩٩٣م) .

الزبيدي؛ عبدالكريم جواد كاظم / دراسة نحوية في علاقة بعض المسائل الخلافية بكتاب سيبويه (ط١)، دار البيان العربي / جدة ، ١٩٨٣م) .

سيبويه؛ أبو بشر عمرو بن قنبر (١٨٠هـ) / الكتاب، تح. عبدالسلام محمد هارون (الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة ، ١٩٦٦م) .

الشرقاوي ؛ عفت / بلاغة العطف في القرآن الكريم (دار النهضة العربية / بيروت ، ١٩٨١م) .

الشلوبيني ؛ أبو علي (٦٤٥هـ) / التوطئة ، تح. يوسف أحمد المطوع (دار التراث / القاهرة ، ١٩٧٣م) .

الشمسان ، أبو أوس إبراهيم / الجملة الشرطية عند النحاة العرب (ط١ ، مطابع الدجوي / القاهرة، ١٩٨١م) .

ــــــ / قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي (ط١ ، مطبعة المدني/ جدة، ١٩٨٧م) .

الطيبي؛ شرف الدين الحسين بن محمد بن عبدالله (٧٤٣هـ)/ التبيان في البيان، تح. توفيق الفيل وعبداللطيف لطف الله (ط١ ، جامعة الكويت/ الكويت ١٩٨٦م) .

ابن عقيل ؛ بهاء الدين عبدالله (٧٦٩هـ) / شرح ألفية ابن مالك، تح. عبدالعزيز النجار (مطبعة الفجالة الجديدة / القاهرة ١٩٦٧م) .

ــــ / المساعد على تسهيل الفوائد ، تح. محمد كامل بركات (جامعة أم القرى / مكة المكرمة، ١٩٨٠م) .

الكيشي؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عبداللطيف القرشي (٦٩٥هـ) / الإرشاد إلى علم الإعراب، تح. عبدالله بركاتي، ومحسن سالم العميري (ط١ ، جامعة أم القرى/ مكة المكرمة، ١٩٨٩م) .

ابن هشام؛ جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف (ت٧٦١هـ) / مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله (ط١ ، دار الفكر/ دمشق ، ١٩٦٤م).

ابن يعيش؛ أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي (٦٤٣هـ)/ شرح المفصل (دار الطباعة المنيرية / القاهرة، د.ت).

التقارير

ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر الميلادي

مركز جمعة الماجد - دبي - الإمارات العربية المتحدة

نظم مركز جمعة الماجد في دبي يومي ٢٢ و ٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م ندوة علمية بعنوان (تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر) دُعي إليها جملة من الباحثين المهتمين بموضوع تاريخ الطباعة من البلاد العربية والأجنبية، الذين قدموا دراسات محكمة جديدة احتوت على إضافات علمية قيمة في الموضوع سوف تثري عند نشرها موضوع تاريخ الطباعة العربية الذي مازال يعاني من قلة المعلومات ذات الصلة به، وقد تولى مركز جمعة الماجد مهمة الإعداد والتنظيم وكذلك استضافة المشاركين بالبحوث.

وسبق الندوة تنظيم معرض متخصص في نوادر المطبوعات العربية عرضت فيه مجموعة من أوائل المطبوعات العربية، وإلى جانب الدور المهم لصاحب المركز جمعة الماجد، فقد كان لنائب المدير العام الدكتور عبدالرحمن فرفور دور أساسي في التخطيط والإعداد والمتابعة لهذه الندوة العلمية الفريدة في مجالها، وخلصت الندوة إلى تقرير وتوصيات قام بإعدادهما الدكتور عبدالرحمن فرفور نائب مدير مركز جمعة الماجد، والدكتور قاسم بن أحمد السامرائي الأستاذ في جامعة ليدن، والدكتور عباس طاشكندي الأستاذ في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، والدكتور محمود الطناحي الأستاذ في جامعة القاهرة، والدكتور نزار أباظة الباحث في مركز جمعة الماجد، ونورد فيما يأتي نص التقرير والتوصيات.



منظر جانبي لمبنى مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

افتتحت الندوة في الساعة التاسعة صباحًا بتلاوة آيات من القرآن الكريم، ثم بكلمة عريف الحفل الأستاذ عبدالعزيز إسماعيل، تلاها كلمة السيد جمعة الماجد عن اللجنة المنظمة شكر فيها صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء حاكم دبي على تكرمه بالرعاية الحميدة للندوة. كما أثنى على اهتمامات رئيس الدولة صاحب السمو الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان بالعلم والعلماء والثقافة. ثم رحب بالسادة الحاضرين، وشكر للمحاضرين في موضوع الندوة التي بيّن أسباب الدعوة إليها، وأشاد بجهود المجمع الثقافي، وشكر بلدية دبي ورؤساء الجلسات.

بعد ذلك ألقت الدكتورة سعاد الصباح كلمة المشاركين فتحدثت عن أثر ظهور المطبعة على الحياة العربية في نشر المعرفة وتعجيل حركة التقدم الفكري والأدبي والعلمي، وأثنت على دعوة المركز والمجمع لهذه الندوة التي ترصد تاريخ الطباعة. ودعت إلى ضرورة التعاون في المشاريع الثقافية، وعقد ملتقى ثقافي لدراسة سبل التعاون لتنسيق خطط المؤسسات الثقافية وطموحاتها وأدوارها.

واختتمت الجلسة الافتتاحية بمحاضرة للأستاذ عبدالعزيز عبيد الخبير الباحث في المركز الرئيس باليونسكو

تناول فيها بالحديث «مشروع ذاكرة العالم» الذي تقوم عليه اليونسكو، الذي يهدف إلى حفظ الوثائق التراثية المهمة لبلدان العالم (المخطوطات والأفلام والشرائط وما إليها) وخاصة تلك المهددة منها بالطمس والاندثار، وإتاحتها لمن يريد الانتفاع بها وجعلها في متناول أكبر عدد ممكن من الناس باستخدام الوسائل التقنية الحديثة. وقد فصّل الباحث في الخطة التي أعدتها اليونسكو لهذا المشروع، واللجان المؤلفة له، والأعمال التي نفذت منه، والمشاريع المتفرعة عنه.

وعند الساعة الحادية عشرة بدأت الجلسة الأولى برئاسة الأستاذ محمد المر، حاضر فيها الدكتور قاسم السامرائي عن «تاريخ الطباعة العربية في أوربا» فمهّد بالمحاولات الطباعية بواسطة القوالب الخشبية في العالم الإسلامي التي سبقت الطباعة المعروفة، وذكر أن الطباعة الميكانيكية لم تنتشر بين المسلمين بسرعة لدواعٍ جمالية. وعزا قيام الطباعة العربية في أوربا إلى أسباب هي ظهور الورق وحمّى التنصير والهيمنة الاستعمارية ودراسات المستشرقين. ثم فصّل في هذه الأسباب، وبرهن عليها بشواهد وأمثلة شفعها بنماذج من صفحات مختارة من أوائل المطبوعات في أوربا. كما تحدث عن عدد من المطابع الأوربية المشهورة كمطبعة الميديشي في إيطاليا ومطابع هولندا وأشهر مطبوعات تلك الحقبة.

وترأس الجلسة الثانية الدكتور محمد عبدالله المطوع فقدم لمحاضرة عن «تاريخ الطباعة العربية في تركيا وبلاد الشام» للدكتور وحيد قدورة. الذي حالت ظروفه الخاصة دون المجيء، فأرسل بحثه بالبريد وقرأه بالنيابة عنه الدكتور غازي مختار طليمات. وقد تناولت الدراسة أثر المطبعة العربية في التحولات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وبينت ظروف نشأتها وأسبابها وتصورات المسلمين حولها. ثم تحدثت عن مطابع إستانبول وبلاد الشام وإداراتها وأحوالها المالية ومشكلاتها الفنية وأشهر الكتب التي طبعت فيها.

وفي الفترة المسائية ترأس الجلسة الأولى الدكتور جمال سند السويدي، وتحدث فيها الأستاذ مختار أحمد الندوي عن «تاريخ الطباعة العربية في شبه القارة الهندية» فقدم إشارة إلى معرفة المسلمين بالطباعة قديمًا منذ مارسوا سك النقود، والنقش عليها واستخدام القوالب الطباعية، ولكنهم لم يطوروها إلى الطباعة بالآلات بسبب تأخرهم وتدهورهم. ثم تحدث عن بداية الطباعة العربية في الهند أواسط القرن الخامس عشر الميلادي وظهور الطباعة الليثوغرافية التي فضّلها الهنود؛ لأنهم اعتادوا على خطوط النساخ أكثر من الحروف المتحركة التي اعتمدها المنصرون في مطابعهم، فنشروا الأناجيل والكتب المسيحية.

وقد ذكر المحاضر أشهر المطابع التي انتشرت في الهند بكثرة كاثرة، وذكر أسماء أشهرها وأعلام ناشري التراث الهنود، خاتمًا حديثه بالكلام عن الورق الهندي ومصانعه.

وترأس الجلسة الثانية الأستاذ عبدالرحمن حسن عبيد، فقدم الأستاذ فوز تادرس ليتحدث عن «تاريخ الطباعة العربية في الأمريكتين» فمهد لمحاضرته بالصعوبات التي تواجه الباحث في موضوع محاضرته بسبب غياب البيليوجرافيا اللازمة، وقال إن معظم ما نشر من الكتب بالأمريكتين كان في مجال الأدب الذي وصف الباحث مضمونه، وتحدث عن أصحابه وظروفهم، ثم أشار إلى أوائل الصحف في المهجر ذاكرًا أسماءها وطبيعتها والصعوبات التي واجهت المطابع بالحرف العربي، وأهم الكتب التي ظهرت في الفترة المدروسة.

واختتمت الجلسات المسائية بجلسة ترأسها الدكتور علي قاسم، وحاضر فيها الدكتور محمد بن شريفة عن «تاريخ الطباعة في المغرب العربي» فتحدث عن إرهاصات دخول المطبعة إلى المغرب مشيرًا إلى أن أول

مطبعة كانت في تطوان ولم تحدث أثرًا واضحًا. ثم فصّل ملابسات دخول المطبعة الحجرية التي نقلت بطريقة شخصية منْ مصر، تلاها مطابع حجرية أخرى أسهمت في إنتاج المجموعة الكبيرة للكتب الحجرية المغربية المعروفة. ثم بين طبيعة هذه الكتب وأثر مطابع المغرب في نشر التراث الجيد والنوادر معللاً أسباب رغبة المغاربة في هذا النوع من الطباعة التي قضى الفرنسيون عليها سنة ١٩٤٥م.

وبدأت جلسات اليوم الثاني من الندوة صباح يوم الإثنين ٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ، الموافق ٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م وكانت الجلسة الأولى برئاسة الأستاذ عبدالحميد أحمد، تحدث فيها الأستاذ مهدي محقق عن «تاريخ الطباعة العربية في إيران» فذكر بداياتها على يد اليسوعيين الذين طبعوا الكتب المسيحية، جاءت بعدها مطبعة تبريز التي قامت على أيدي شبان تعلموا فن الطباعة الحجرية والرصاصية في أوربا، ثم قال إن المطابع شاعت في إيران مشيرًا إلى عيوب المطبعة الحجرية وميزاتها. واستعرض أخيرًا أسماء أشهر الكتب المطبوعة في المرحلة المدروسة، وهي تلبي حاجة الطلاب عمليًا في مختلف العلوم المطلوبة آنذاك.

وفي الجلسة الثانية التي ترأسها الأستاذ حسن قايد الصبيحي تحدث الأستاذ الدكتور يحيى الساعاتي عن «تاريخ الطباعة العربية في شبه الجزيرة العربية» فخصص حديثه عن المطبعتين اللتين كانتا في المرحلة المخصص لها البحث، وهي مطبعة صنعاء ثم مطبعة مكة المكرمة، فوصفهما وأشار إلى تاريخ ظهورهما وأسبابه وملابساته، والظروف التي تعرضتا لها والإدارات التي تعاقبت عليهما وتطورهما، والأشخاص الذين عملوا فيهما، وأثرهما في الحركة الفكرية والثقافية في شبه الجزيرة، وتبع البحث قائمة تحليلية بما نشر في هاتين المطبعتين.

وفي الجلسة الثالثة التي ترأسها الأستاذ يوسف حسن الصابري تحدث الأستاذ الدكتور أنس خالدوف، فتناول موضوع «تاريخ الطباعة العربية في بلاد ما وراء النهر وروسيا» وذكر أن الطباعة العربية نشأت فيما يعرف اليوم ببلاد آسيا الوسطى في الربع الأخير من القرن التاسع عشر لكن الحكومة الروسية كانت تطبع بها البيانات الموجهة للمسلمين منذ عام ١٧١١م أيام القيصر بطرس الأول، وأن الملكة كاترينا طبعت مصحفًا شريفًا في بطرسبرغ سنة ١٧٨٧م وتحدث عن مطابع قازان وبطرسبرغ وموسكو، ثم مطابع تفليس وأوفا واورنبورغ وباغجه سراي وباكو وطشقند وبخارى، كما تحدث عن أصحابها وعمالها وظروفها الصعبة، وبيّن مانشر بها من كتب ضاعت معظمها لأسباب متعددة.

وفي الفترة المسائية من هذا اليوم الثاني ترأس الجلسة الأولى الأستاذ أحمد جلال الندوي، وتحدث فيها الأستاذ الدكتور علي إبراهيم النملة عن «أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي» فذكر جهودهم فيه وحفظهم له ومجالات خدمتهم وموقف الدارسين منهم. وقسمهم الباحث إلى أربع فئات بحسب موقفهم من تراثنا، وبيّن عوامل سبقهم لدراسة تراثنا الذي حفظوه. وأشار إلى أن اهتمامهم بهذا التراث بدأ ينخفض لأسباب ذكرها، ورأى أن عملهم بتراثنا عمل انتقائي، إذ اختاروا الدراسات التي تثير الجدل. وخُتم البحث بالدعوة إلى إجراء دراسات متخصصة بأعلام المستشرقين وأعمالهم، ولا سيما الذين عاشوا في القرن التاسع عشر وماقبله.

وفي الجلسة الثانية التي ترأسها الأستاذ الدكتور يحيى محمود الساعاتي تناول الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد «منهج نشر التراث العربي المخطوط في أوائل القرن الرابع عشر الهجري» حيث عرض نماذج من عمل ناشري التراث في نهاية القرن الثالث عشر

الهجري وبداية القرن الرابع عشر في القاهرة وإستانبول، ورأى أن هذه الكتب التي نشرت في تلك المرحلة لم تكن مما يطمئن إليه؛ لأن أولئك الناشرين لم يحافظوا على النص، ولم يسلكوا في إخراجه المنهج العلمي وإن كان بعضهم قد اقترب من ذلك المنهج ومبادئه في أوائل القرن الرابع عشر.

وترأس الجلسة الأخيرة الأستاذ خليفة بخيت، وتحدث بها الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي عن «تاريخ الطباعة العربية في مصر» فبدأ بمطبعة الحملة الفرنسية، وذكر ما آلت إليه بعد ذلك مشيرًا إلى أن الطباعة العربية المصرية مرت بثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى: مرحلة مطبعة بولاق، وفصّل فيها الحديث عن تطورها ووصف التطورات التي مرت بها كما وصف كتبها. والمرحلة الثانية: مرحلة مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية التي قامت بعد مطبعة بولاق بعشرة أعوام، فذكر أسماءها وأشار إلى مطبوعاتها. والمرحلة الثالثة: مرحلة المطابع الأهلية المكملة لمرحلة بولاق، فذكر نحو خمسين مطبعة منها وتحدث عن أعمالها وأهدافها، وانتهى البحث إلى عدد من المقترحات.

وبعد هذا الاستعراض لمحاور «ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر» فإن لجنة التوصيات ترى أنها كانت من الندوات الجادة، حيث قُدم فيها بحوث منهجية رصينة عالجت موضوعًا مهمًا وجلت عنه غشاوة الإبهام وبينت حقائق جليلة، وأعطت صورة متكاملة في موضوعها تفيد الباحثين وتخدمهم، وأثرت ميدانًا لم يكن مطروقًا بهذا الشكل من قبل.

وقد كانت هذه الندوة فرصة علمية متميزة للتواصل بين العلماء والمتخصصين من الباحثين مما يجعلها إحدى الندوات المفيدة الناجحة.

ونظرًا لأهمية هذه الندوة واستمرارًا للبحوث المطروقة فيها يوصي المجتمعون بما يلي:

١ - طباعة البحوث المقدمة في كتاب مستقل جامع يشتمل على فهارس فنية وافية بعناوين الكتب الواردة في البحوث والمؤلفين المذكورين فيها، وكذلك الأعلام والأمكنة والمصطلحات المستعملة، وغير ذلك من الفهارس المعروفة.

٢ - استمرار مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي والمجمع الثقافي بـ «أبوظبي» في إقامة مثل هذه الندوة المتخصصة، وأن يتبنيا عقد ملتقيات في إطار المحاور التي تتناول صناعة الكتاب العربي الإسلامي المطبوع والمخطوط، وما يتعلق بنشره وفهرسته ونحو ذلك.

٣ - وضع قائمة دقيقة شاملة بأسماء المطابع العربية في كل بلد من بلدان العالم، وأخرى بمطبوعاتها حتى نهاية القرن التاسع عشر.

٤ - وضع قائمة تتضمن أسماء الناشرين والمصححين والمنفذين للكتب العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر.

٥ - وضع قائمة بالكتب التي طبعت على حواشي كتب أخرى وهوامشها ولم يتكرر طبعها، لتمييزها من الكتب التي طبعت معها.

٦ - توصية المؤلفين والمحققين أن تكون قوائم المراجع والمصادر التي يلحقونها بكتبهم وافية غير ناقصة؛ بحيث يتبين فيها عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، ومصححه، ومحققه، وعدد أجزائه، وتاريخ طبعه، والمطبعة التي أنجزته.

٧ - توصية دور النشر التي تصور الكتب القديمة لإعادة طبعها أن تبقي على أسماء المطابع القديمة وأسماء محققيها ومصححيها وسائر أصحاب الحقوق القدامى.

٨ - اقتراح عقد ندوة تتناول موضوع «مناهج تحقيق التراث العربي وأصولها: وصف ومقترحات».